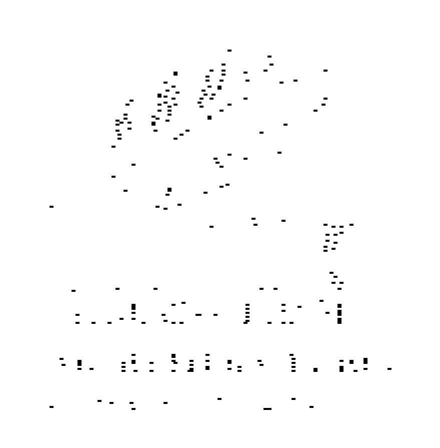


اعداد: عائشة بنت المعمورة
رابح خدوسي

بقرة اليتامى

قصص

بقرة اليتامى

حكايات جزائرية شعبية -من التراث الشعبي-

البريد الالكتروني: E-mail :unecriv@net.sy

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu-dam.org

تصميم الغلاف للفنان : صالح الخضر

□□

اعداد: عائشة بنت المعمورة
رابح خدوسي

بقرة اليتامى
- وقصص أخرى -

حكايات جزائرية شعبية -من التراث الشعبي-

مقدمة

الحكاية الشعبية، كائن حي.. وله أجنحة.. يطير بها عابراً الحدود، بدون جواز سفر.. لذلك نرى فيها ملامح إنسانية عامة، إذ تتشابه، وتتشابك، وتنمو، وتحيا في أرجاء دنيانا: مثيرة، ممتعة، صالحة في كل مكان وزمان.

ويكفيها فخراً أنها من تأليف "الشعب" بكامل فئاته، وهي ثمرة تفكير عقل جَمْعي، لذلك تنتصر دائماً للخير، ويلقى الشر فيها هزيمة مروعة.. كما أنها تصل مباشرة إلى وجدان سامعها، وقارئها، لا تحتاج إلى استئذان ولا تقف في وجهها أبواب مغلقة أو أسوار عالية..

والعالم يعترف لنا- نحن العرب- بأن لدينا أعظم كنوزه الشعبية: ألف ليلة وليلة، ويرى في شهرزاد أهم راوية للحكايات في كل الدنيا، لذلك أخذوا منها ما أعطوه لأبنائهم، وحولوها إلى مسرحيات، وأفلام، استمتعوا بها،

وأسعدتهم، ووسعت من خيالهم وأنعشت دائماً ذاكرتهم.. وفعلوا نفس الشيء مع السير الشعبية العربية مثل عنترة، وعلي الزيبق، وأبي زيد الهلالي والزناتي خليفة ودياب، بجانب سيف بن ذي يزن، والأميرة ذات الهمة.

وكان جميلاً من الأستاذ "رابح خدوسي" والأستاذة "عائشة بنت المعمورة" أن يعيدا صياغة الحكاية الشعبية العربية في الجزائر، وأن يعداها للأطفال، أسوة بما حدث في كل بلدان العالم، وسوف نجد ملامح من سندريلا في قصة "بقرة اليتامى"، واستبدلت حكايتنا الحذاء بالشعرة الصفراء، كما أن حكايتنا كانت أكثر عمقاً وإنسانية عندما جعلت البقرة أكثر عطاءً من البشر، لأنها أعطت اللبن حتى بعد رحيلها.. والنصف الثاني من القصة يذكرنا أيضاً بحكاية "جاك وأعواد الفول"، وغيرها، حين يتحمل الصغار النفي، ويعتمدون على أنفسهم وعلى القدر، وهم ينجحون في النجاة بأنفسهم، بل وتحقيق حياة كريمة..

ونحن قد نجد في الحكاية الشعبية بعض القسوة والعنف لكن أبناءنا أكثر شجاعة من أن يخافوا منها أو يترعجوا أو يرتجفوا، وهم يتقمصون شخصيات أبطال هذه الأعمال وهم قادرون على احتمال هذا الذي يجري معهم، وإن كنت شخصياً أفضّل استبعاد بعض الأحداث، لأننا نريد للأبناء أن

يكونوا أكثر شعوراً بالأمن والطمأنينة..

لأن في دنيانا ما يزيد على الحاجة من الرعب الفزع. وحكاية "الأميرة السجينة" فيها من "جميلة والوحش" ومعروف أن لعقل الإنساني قادر على أن يهزم المارد والوحش والعملاق، إذاً ما أحسنا التفكير والتدبير.

ولا يعني هذا التشابه أننا أخذنا منهم وعنهم، لكن الحقيقة أننا أبدعنا بأنفسنا حكاياتنا، ومن قبلهم، وإنها طارت هنا وهناك، لأنها كائن حي له جناحان.. ولا يعقل أن تعلم شهرزاد العالم رواية الحكايات التي أنقذت حياتها، وحياة فتيات كان من الممكن أن يتخلص منهن شهريار، أي أن الحكي قد انتصر على القتل، وهزمه..

لذلك فإن لنا أن نشد على يد الكاتب "رابح" والكاتبة "عائشة"، شاكرين لهما أن قدما لنا هذه الأعمال التي وصلت إلينا عبر الأجيال، وكابدت الزمن، وبقت حية مما يؤكد أصالتها، وهو أمر جعل الناس يتوارثونها، ولا يفرطون فيها.. وهي -أي الحكايات- أروع بكثير من تلك التي تصل إلينا مترجمة ومنقولة، فهي ملكنا، وخاصة بنا، وتمسّ منا العقل والقلب والوجدان، وتجعل منا أناساً طيبين، وقادرين على مواجهة المصاعب، وعلى حل المشكلات، كما يفعل أبطالها..

نعـــم، إن الـــبطولات التي أبداها شعب الجزائر من أجل الحرية والاستقلال قد يراها البعض أكبر وأعظم من تلك التي يقـــوم بهـــا أبطـــال الحكايات الشعبية، لكن هذه الحكايات ساهمت بدون شك في وجود الأبطال الحقيقيين... ومرحباً بحكايات الجزائر الشعبية لكل القراء العرب في وطنهم الكبير.

الدكتور: عبد التواب يوسف

بقـرة اليتامى

فـــي كـــل بيـــت، في كل قرية ومدينة يتذكر الكبار والصـــغار حكايـــة الأوائل الذين صنعوا الحياة بأفراحها وأتراحها،، وبين مئات الحكايات التي ترددها الجدات... مـــن ذاكـــرة لأخرى ومن حكاية لحكاية نستلطف أعذب القصـــص وأغربها عبر سالف الأزمنة، تتداولها الألسن لـــتكوّن جلســـة من جلسات التسلية والإثارة،، نقضي بها الساعات الطوال من الليل قرب الجدة.

"زيـــنب" الـــتي مـــا فتئت ذاكرتها المشحونة بصور حوادث مؤلمة ومفرحة يستعيد تذكرها زفير الزمن، يبتهج لها الصبية المجتمعون حولها في صبر وشوق وهي تسرد عليهم هذه الحكاية قائلة:

–آه يـــا أبـــنائي سأقص عليكم حكاية "بقرة اليتامى" القصـــة التي أبكت الأجيال، قصة الإنسان الذي لعبت به الأقدار في سخرية دامعة،،

يردون عليها: -نعم،، نعم يا جدتي هيا بسرعة،،

الجدة:

تغمــر الســعادة قــلب الرجل الساكن الكوخ،، تحت زقــزقة العصافير وزرقة السماء، ومع اخضرار الأرض تداعبه بسمات زوجته الحنون وهي ترعى طفليها "ظريف ومــرجانة" مع بقرتهما الصفراء، ذاك رزقهما في الدنيا ينــتفعان بحليبها... يجلسان بقربها، فتلامس بلسانها وجه "ظــريف"، هــذه سعادتهما تتضاعف، وقهقهاتهما تتعالى والفرح يحيط عالمهما وهما يترعرعان في حضن أبويهما الكــريمين،، وتمــر الأيــام والليالي والقدر يكن للعائلة الصغيرة الهادئة أموراً أخرى،،

فجــأة تخــور قــوى الأم الــرؤوم فتصبح طريحة الفــراش،، تمــزقها سكاكين الوجع، تزيدها حرقة دموع طفليها وحسرة زوجها،، كانت الفتاة تسهر بجانب والدتها تخفــف حــرارة جسمها، وأضعه قطعة من القماش مبللة بالمــاء البارد على جبينها.. وما عسى "ظريف" أن يفعل ســوى ذرف دموع حارقة شفقة على أمه التي قد يفقدها إلى الأبد!! وتزداد الحمى ويشتد مرضها،، فتسلم روحها إلى بارئها تاركة وراءها طفلين للوحدة والاغتراب،، لليتم والأحزان،،،،

***

الحــزن دخل البيت دون استئذان،، شقاء وآلام مرة مــرارة العــلقم ودموع من فيضها تجري كالوديان... ما أقســاك يا زمن الفراق، صحيح أن فراق الأحبة غربة،، وهكذا صار الطفلان كالعصفورين الصغيرين يبحثان عن أمهمــا فــي قلب أبيهما،، وأضحى الكوخ حزيناً مكفهراً، الظــلام الدّامــس يسكنه في رابعة النهار كما سكن أفئدة العائلة الجريحة كأنها طائر مهيض الجناح، الحزن الأسود يخيــم عــلى الجميع، حتى البقرة أحست بفقدان صاحبتها فندر الحليب في ضرعها...

***

مــرت الســنون والعائــلة بائسة تكاد رياح الشقاء تعصف بها.

رغــب الأب عن الزواج بامرأة أخرى لأن زوجته الأولى لازالــت تحــتل قلــبه وتفكيره لكن حرصه على ولديــه، ورعايــتهما وتدبير شؤون البيت جعله يفكر في الأمر مرة ثانية.

وتزوج الشيخ من امرأة ظن الخير في ناصيتها لكنها كانت تخفي تحت جمالها قلباً أسود أقسى من الحجر، قلباً لا يرحم ولا يلين.

أنجــب الشــيخ مــن زوجته بنتا سمّاها (عسلوجة) فتضــاعف حقــد زوجــة الأب عــلى الطفلين (ظريف

ومـــرجانة) اللذين كان يقضيان وقتيهما في النهار مهملين جـائعين، وعـــند المـــبيت يفترشان الثرى أو التبن قرب بقـــرتهما، يســـتمدان العطـــف والحنان من نظراتها كما يســـتمدان الغذاء من حليبها الدسم فنما جسماهما وتوردت خدودهمـــا صـــحة وعافيـــة وكان ذلك العطاء الحيواني تعويضاً للحرمان الإنساني.. احتارت زوجة الأب في أمر (ظريف ومرجانة)، رغم حرمانها وإهمالها لهما، يزدادان نمـــواً وجمـــالاً، وفي المقابل يعتري (عسلوجة) شحوب وهـــزال رغـــم عنايـــتها الفائقة بها غذاء ولباساً ودلالاً. فســـهرت لذلك الليالي تفكر باحثة عن جواب شاف كاف للأسئلة المتهاطلة عليها كسيل الأمطار، لكنها لم تجد حلاً للغز المفارقة التي تراها تزداد يومياً.

وفي أحد الأيام أوصت بنتها (عسلوجة) قائلة:

-رافقيهما إلى المرعى وارصدي حركاتهما لتخبريني مـــن أي مصـــدر يســـترزقان، من أين يأكلان، لم تكن عســـلوجة أقل من أمها حقداً وغيرة تجاه أخويها (ظريف ومـــرجانة) مما جعل نار الحسد تشتعل في قلبها الصغير فيصعد دخان اللهب إلى وجهها ليجعله أسود وهكذا ورثت (عسلوجة) من أمها صفة قبيحة تميت صاحبها ببطء.

اســـتجابت عسلوجة لطلب أمها بلهفة وراحت ترقب الطفلين عن بُعد...!!

كـــانت دهشتها كبيرة وهي ترى البقرة في منتصف الـــنهار تقترب منهما فيجثوان على ركبتيهما ثم يمسكان بضـــرعها ليـــنهلا مـــنه الحليب الصافي، يرضعان مثل الصـــبيين التوأمين كأنهما يمتصان ثدي أمهما،، يا له من مشـــهد رباني،،، ياله من موقف غريب عجيب،، حادث رائـــع، يدعو إلى التفكير في أسرار هذه الحياة وسخرية الأقدار ببني الإنسان.

اندهشـــت البـــنت (عســـلوجة) لما رأت ذلك، لكنها سرعان ما حاولت تقليدهما،، تقدمت نحو البقرة وقبل أن تضع رأسها قرب الضرع صكّتها البقرة بحافرها فأصابت عيـــنها اليمنى، وكان ذلك جزاء التجسس على الأبرياء.. وعـــادت البنت (عسلوجة) إلى أمها مغمضة العين باكية الأخرى فأخبرت والدتها بما حدث لها وما شاهدت طول النهار.

اغـــتاظت الـــزوجة لما رأت وسمعت واشتد غضبها فعاقـــبت الطفلين (ظريف ومرجانة) عقاباً شديداً وقررت التخلص من البقرة (أم اليتامى).

هـــا قد شرعت تفكر في حيلة تنصب شراكها لتنفيذ قرارها:

بدأت توحي بذلك إلى زوجها تمهيداً لإبلاغه القرار، وبعد ذلك بأيام طلبت منه ذلك جهاراً نهاراً، قائلة:

-أيها الزوج العزيز، يا شيخي الكريم، نحن لسنا في حاجة إلى البقرة.

ردَّ عليها في دهشة وغضب: -ماذا تقولين أيتها الحمقاء؟ أجننت؟ أنسيت حليبها ولبنها وسمنها؟!

قالت وهي تلح في جرأة وقحة:

-بعها واشتر لنا حماراً نركبه فيريحنا، إني كرهتها، إنها متعبة، لا أريد رؤيتها بعد اليوم.. وباتا ليلتهما متخاصمين، يتجرعان مرارة الخلاف...

وجاءت الأيام ومع إصرار الزوجة على رأيها تفتت موقف الشيخ الصلب وانصاع لرغبة "زوجته"......

في السوق الأسبوعي حيث ينعقد مؤتمر التجار والفلاحين ويلتقي الغني بالفقير والفلاح بالأمير والأمين بالغرّير، كان الناس يحملون السلل الحافلة بمختلف أنواع الخضر والفواكه الشهية التي منّت بها عليهم الأرض.... فواكه لذيذة أنتجتها أيدي خشنة متجعدة، كما عرضت في السوق أواني طينية أبدعتها أنامل النساء القرويات في أشكال منقوشة ومظاهر منحوتة وصور مزركشة قشبية أخذت من أمنا الأرض زخرفتها.

تقول الجدة "زينب" ضاحكة:

-"لو كان ما لساني لحلاح ما خذيت المداح" هذا حال

الدنيا يا أكبادي، وهذه طبائع البشر كمعادن الأرض، فيها الذهب والفضة وفيها النحاس والرصاص، توجد نساء عطوفات كالأمهات أو أكثر، لا تخافوا يا صغاري، يبتسم الأطفال وتواصل الجدة سرد الحكاية، وهي تتثاءب واضعة راحة كفها على فمها من حين لآخر:

من مطلع الفجر لبس الزوج عباءته البيضاء ورمى برنوسه البني الطويل على كتفه ثم اتجه نحو الإسطبل ماسكاً الحبل بيديه المرتعشتين ليضعه حول قرني بقرة اليتامى...

كانت البقرة في طريقها إلى السوق الأسبوعي تبكي بلا دموع وكأنها عرفت مصيرها، بل أنها كانت تبدو حزينة لفراق الطفلين الأبدي.

عندما ابتسم الصبح حزيناً ذهبا إلى مكانها كالعادة لشرب حليب الصباح فوجدا المكان خالياً..

لم يجدا الكنز الذي تركته لهما أمهما فشعرا بموت أمهما مرة ثانية، وكأنها توفيت مرتين. فبكيا كثيراً...

كان الشيخ في طريقه يردد في نفسه كلمات يقصد بها زوجته:

-هي تقول وأنا أقول... هي تقول وأنا أقول حتى غلبتني بالقول،،، لقد صدق من قال لكل داء دواء يستطب

بــه إلاّ الحماقــة أعيــت مــن يداويها يا ليتني تزوجت بالضاوية بنت المدّاح المرأة الكريمة العطوفة.

وفــي بــاب السوق وجد الشيخ جزاراً يسوم الناس أبقــارهم، فــباعه البقرة بأدنى ثمن وعاد إلى بيته حزيناً يدعو الله اللطف والرحمة بصغيريه اللذين وجدهما مكان الــبقرة فــي حداد ينظران نحوه نظرات غريبة ممزوجة بالعتاب والاستفهام...

اســتلقى الشــيخ على فراشه ليلاً وبعد أرق وسهاد حــرما على جفونه النعاس استسلم للنوم فرأى في الحلم زوجته الأولى أم الطفلين تزوره دامعة العينين وهي تقول له: سامحك الله.... لقد ضيعت الأمانة.

ثــم تطلب منه الذهاب إلى الجزار لاسترجاع ضرع الــبقرة وقــرنيها ووضــعهم على قبرها في أقرب وقت لاحق.

قــام الشــيخ مــن نومه مفزوعاً ولبس عباءته في منتصــف الليل، ثم غادر بيته صامتاً وفي سرعة عجيبة هــرول نحو دار الجزار، وأكمل الهزيع الأخير أمام باب الجزار ينتظر خروجه.

اســتيقظ الجــزار على نباح الكلب فوجد الشيخ على عتبة البيت يرتعد من البرد، استغرب لحاله واستفسره عن رغبته، تعلق الشيخ بملابس الجزار يقبل يديه ملتمساً منه

إعطاءه ضرع البقرة وقرنيها.

كان الطلب غريباً كان قلب الجزار رغم قسوته رقّ لحـــال الشـــيخ واستجاب لرغبته وقدّم له ما أراد في تلك الصبيحة....

بيديـــه حمل الشيخ ضرع البقرة والحليب يسيل منه ممزوجاً بالدم، ووضع قرنيها داخل قلمونة برنوسه، وسار فـــي اتجـــاه المقبرة التي تنام فيها زوجته الأولى، عندما وصـــل إلى قـــبرها حياهـــا في حسرة وأسف، ثم وضع الضـــرع عـــلى قبرها قرب حجر الشاهد، وغرس قرني الـــبقرة بالقـــرب من القبر ثم انصرف إلى بيته مسرورا بإرضاء زوجتيه معاً.

***

يشتد الزمن على الطفلين بمرارته المتوالية مع الأيام، لقـــد حـــزنا حزناً عميقاً لغياب بقرتهما، وها هو الجوع يضـــنيهما وزوجـــة أبيهما ترفض الاستجابة لتوسلاتهما المنبعـــثة مـــن معدتيهما الخاويتين،، شحب لون وجهيهما وهزل جسماهما حتى صارا لا يُعرفان عند الناس...

فـــي يوم من الأيام اشتد شوقهما لرؤية أمهما، فذهبا خفية إلى مقبرة القرية يزوران قبر حبيبتهما ويشكوان لها حالهمـــا،، وصـــلا إلى القبر جائعين يلهثان من العطش فوجدا عليه ضرع البقرة يفيض حليباً دافئاً، كان ينتظرهما

كالعـــادة وبالقـــرب منه نخلتين باسقتين كثيرتا العراجين التمرية، تأتي أكلها كلّ حين.

احتضنا قبر أمهما فرحين مسرورين بلقائها وكأنهما يسمعان صوتها ينبعث من تحت التراب ثم بكيا حتى تبلل تراب قبرها حينما تذكرا حضنها الدافئ الحنون.

شربا الحليب وأكلا التمر حتى شبعا وارتويا ثم تحولا بـــنظراتهما يتطـــلعان إلى الســـماء وإلى النخلـــتين في صورتهما الشبيهتين بقرني البقرة، وبقي الطفلان اليتيمان طوال النهار يناجيان أمهما في مظهر إنساني لا مثيل له.

قـــدم الطفلان إلى المكان مرة ثانية وثالثة، يرتادانه وقـــت الحاجة حتى عادت النضرة إلى وجهيهما والسحر إلى محييهما والعافية لجسميهما فعاود زوجة أبيهما الحسد والضغينة، وطلبت من ابنتها (عسلوجة) إعادة الكرة مرّة ثانيـــة، قبلت (عسلوجة) المهمة بغبطة وكأنها خلقت لفعل التجسس.

رافقت عسلوجة شقيقيها المغضوب عليهما إلى حيث يســـيران، كانا يتعمدان التمويه في سيرهما بين المزارع والحقول يريدان التخلص من أسئلتها التحقيقية لكنها كانت مصـــممة على بغيتها. ويمر النهار عسيراً على الطفلين رغـــم الـــلعب والمـــرح بعض الأحيان، ينتظران عودة (عســـلوجة) إلى الـــبيت وقد أخذ منهما العياء والجوع،،،

طلــباً منها الرجوع فلم تقتنع حذراها من مهالك الطريق الذي يسلكانه فلم تأبه لكلامهما... حاولا العودة إلى البيت لكــن الشوق والجوع والظمأ أرغموهما على الاتجاه نحو المقبرة...

كان الوقت أصيلاً وخلاله قهرهما الجوع فلم يستطيعا صــبراً وتوجهــا نحو الضرع والنخلتين يهزان جذعيهما فيتســاقط الحــب رطباً شهياً. وانكشف السر.... تقدمت (عسلوجة) من الضرع المدرار وتجرعت خلسة قليلاً من الحــليب وأبقت جرعة في فمها، كما وضعت تحت شفتها الســفلى شق تمرة ثم عادت نحو البيت مسرعة لتجد أمها فــي انــتظار التقرير الكامل المفصل عن المهمة الموكلة لها.

باتت زوجة الأب تفكر في الأمر أرهقها التفكير ولم تجــد للموضــوع حيلة ومع الصباح المشرق في ربوع القــرية ســمعت مــنادياً يــنادي لبيع ما لديه من كسوة وعقاقير،، إنه الدلاّل... ها قد جاء في موعده... هرعت إلى بوابة الكوخ تسأله: ما في حوزتك لقطع النخلة؟ أجاب والعرق يتصبب من جبينه:

-القطــران في عروق النخل، يقتل الجذور فتصبح سواكا وبخوراً.

أطــربها جواب الدلاّل فاشترت منه ما يكفيها للفتك

بالنخلتين، واتجهت صوب المقبرة لاهثة، تحمل القطران فــي يدها والمكر في قلبها، وما إن وصلت إلى النخلتين حــتى بحــثت عــن جذورهما ودست فيهما القطران، ثم أخــذت ضــرع البقرة ورمته خارج المقبرة للكلاب التي التهمته في الحين.

بعد عودتها إلى البيت مكثت صامتة صمت المذنبين، لا يــرى الرائي في عينيها الغائرتين غير علامات المكر والدهــاء، أقبل الشيخ من عمله متعباً وقد ضعف بصره وابيض شعره، واحدودب ظهره، وقبل أن يستريح وقفت في وجهه صارخة تتصنع الغضب:

-هيا أبعدهما عني، إني كرهتهما؟

يتساءل العجوز في حيرة: -من تقصدين؟

قــالت: -همــا، الــلذان تسببا في تعوير عين ابنتي عسلوجة.

***

مــع الصباح الباكر يجهز الشيخ ابنه ظريف وابنته مــرجانة للرحيل،،، قصدوا الغابة ترافقهم الدموع، وفي نهايــة الدرب الزراعي الملتوي قرب سفح الجبل ودّعهما الشــيخ بشــهقات حزينة وهو يضع في أيديهما قطعاً من الخبز وكيساً مملوء بألبستهم وفراشهم... وعاد إلى البيت

كئيباً، عاد وحده يبكي حرقة الوداع الأبدي..

ويسير الطفلان قاطعين الوهاد والجبال والأدغال، خارجين بلاداً داخلين أخرى، هائمين على وجهيهما لا يعرفان لرحلتهما اتجاهاً معيناً أو نهاية محدودة.. كان التعب قد أخذ موضعه منهما فجف ريقهما عطشاً والتوت أمعاؤهما جوعاً وكادا يموتان عياءً وظمأ لولا إشرافهما على نهر جار يسمى وادي السحر، بدا لهما من بعيد أملُ يائس وبسمة قائظ ومائدة نزلت من السماء.. وعندما وصلا لاحظت مرجانة سائلاً سحرياً يختلط بالماء، فتذكرت قصة الوادي السحري الذي يغسل الأبدان من الدنس ويحول شاربي مائه إلى غزلان!!

أسرع أخوها ظريف نحو النهر وانكب على الماء يريد إطفاء نار العطش الملتهبة في حلقه لكن أخته منعته من الشرب وبصعوبة أبعدته عن الماء وواصلا طريقهما.. توقف الطفل ظريف عن المشي وأخبر أخته بضياع قلادته عند الوادي، قلادة الذكرى والتذكار، المهداة له من أمه العزيزة... سمحت له أخته بالعودة للبحث عن قلادته وأوصته بالامتناع عن الشرب.

ورجع الطفل إلى النهر للبحث عن ضالته، لكن انسياب الماء بين الحصى زلالاً صافياً أفقده الصبر فلم يتمالك نفسه وانهال على الماء يعبه عباً، وفي لحظة، في

رمشـــة عين، صار العجب! لقد تحول الطفل ظريف إلى مخـــلوق آخر.. يشبه الغزال! اندهشت لذلك أخته وبكت بكـــاءً مـــراً ثم حزنت لذلك حزناً عميقاً، واشتدت حيرتها على أخيها.. ها هي "مرجانة" جالسة تحت الشجرة تمشط شـــعرها والطفل الغزال أمامها يرتشف جرعات الماء لا يـــدري ولا يـــدرك حالــــه.. انســـلت من شعرها الذهبي واحـــدة،، كانت طويلة في امتداد سالفها الطويل، سقطت الشعرة في مجرى النهر فجرفها التيار وسرى يتلاعب بها مســـافات بعيدة، حتى توقفت فجأة بين أنامل يد بشرية،، إنها يد سلطان البلاد..

* * *

منذ حين كان السلطان يتجول في رحلة صيد يصحبه الجـــند وســـط الأدغـــال والأحراش وعند الظهيرة أراد الاستحمام بماء النهر الدافئ استعداداً لتناول وجبة الغذاء الدســـمة، جـــلس عـــلى ضفة النهر ووضع يده في الماء يعـــاكس التيار الجاري مستلذاً بانسياب الماء بين أصابعه كســـريان النسيم العليل بين السنابل، عندما حمل السلطان الشـــعرة فـــي كفـــه كـــانت أشعة الشمس تنعكس عليها فتماوجت ألوانها في منظر سحري بديع، تفحص وتمحص الشـــعرة الذهبية كثيراً وبفراسة الأذكياء عرف أن الشعرة لفتاة رائعة الجمال كريمة النسب عالية الخلق.

وقف الملك صامتاً ثم اعتلى صهوة جواده الأصيل، فاجتمعت حاشيته حوله تنتظر الأوامر،،، قدّم لهم الشعرة قائلاً:

-جـاءت مع الماء،،، أريد رؤية صاحبتها في أقرب وقت.

وبعـد هـنيهة من الزمن كان الجند يسلكون ضفتي الـنهر قاصدين منابع الماء للوصول إلى صاحبة الشعرة الذهبية،،، وجدوا في طريقهم نساء كثيرات يغسلن ثيابهن وينشـرنها على الشجيرات القريبة من النهر كما شاهدوا فـتيات عـذارى يستحممن بماء النهر وقد أفزعهن قدوم الجـند بغـتة من حيث لا يدرين. وظل الجنود يسعون، يقـارنون الشـعرة الذهبية بشعر كل أنثى يصادفونها في طـريقهم حتى اشتغل الناس بالأمر واحتارت النساء لذلك وتوقفـت خطـوات الجند على رأس النهر، حيث منابعه الأولى ولم يجدوا لصاحبة الشعرة الذهبية سبيلاً ولا أثراً، فعادوا إلى السلطان خائبين بعد أسبوع من البحث الدقيق، والاستطلاع الواسع.

اغتمّ السلطان لمّا علم بالأمر، واستسلم لتفكير طويل، يسائل نفسه ويعاتب تاجه ووزراءه عن عجز سلطانه في الوصول إلى شيء بسيط في مملكته وهو الآمر النّاهي...

ومـرت الأيـام فانشغل بأمور الرعية محاولاً تسلية

نفســـه، لنسيان صاحبة الشعرة الذهبية الغريبة،،، لكنه لم يــنس إخفــاء الشــعرة في صندوقه الخاص مع لوازمه السرية.....

***

هــا هي الفتاة مرجانة تمشي وأخوها الطفل الغزال ظريف يتبعها في مشهد غريب حقاً،،، وفي غمرة حيرتها الكبرى شاهدت كوخاً قديماً يتوسط الأشجار فأسرعت بها قدماهــا نحــوه، إنـــه لعجوز طيبة تعيش من الأعشاب والعقاقيــر الــتي تحضرها إلى الدّلال كل صباح، عندما يأتي وعلى كتفه "الشوال" وهو ينادي:

-غذاؤك دواؤك، هات ما عندك أعطيك ما عندي،،، البيع لا والمبادلات نعم.

فــتقدم له العجوز الحشائش والعقاقير النافعة للعلاج مستبدلة إياها بالقمح والشعير والزيت.

رحــبت بالطفــلة التي جاءت تريد الخبز والماء لها ولأخيها.

تستغرب العجوز ثم تسأل:

-أين أخوك؟

وقصّت عليها مرجانة الحكاية من البداية إلى النهاية.

أســرعت العجوز إلى مربط الجديان وأطلقت الغزال

من ربقة القيد، بعد أن عرفت قصته، فجاء مسرعاً ليقف قرب أخته، وقدمت لهما العجوز الخبز والعسل والتفاح ثم قالت لهما:

-لا تيأسا من رحمة الله،، أنا أمكما الآن... ثم نظرت إلى السماء وهي تقول:

-شكراً أيتها العناية الإلهية لقد حققت حلمي،،، حلمي الدفين منذ سنين.

عمّ الخير البلدة بحلولهما على بيت العجوز فنزل الغيث وتفجرت الينابيع المائية واخضرت الأرض الفلاحية، وغمرت خيمتها الأرزاق.

ويأتي الدلاّل يأخذ طبق الأعشاب فيجد بداخله ذهباً،،، استمر الحال شهوراً والدلاّل فرح ومتعجب، لكن الاستغراب كان يملأ خاطره ويشغل باله،، فقرر بعد سنين اطلاع السلطان على هذا السر العجيب... الأعشاب تصير ذهباً والصيف يصبح ربيعاً؟؟؟........

***

زوجة الأب وابنتها عسلوجة يقرران الرحيل والشيخ يمانع وقد ظنّ أن يد الأقدار تعيد له طفليه، حاول الامتناع لكن إصرار زوجته وتهديدها له بتظليمه لدى الحاكم زورا والوشاية بأنه لا يدفع الضريبة السنوية على أفراد عائلته،

أخضعاه للأمر الواقع.... وسافرا الثلاثة إلى غير رجعة تاركين البيت أطلالاً، جدراناً طينية تتلاعب الرياح بسقفها النباتي.

أصبح الدلاّل من الأغنياء لكنه لم ينقطع عن الدلالة، هـا هو يدخل قصر السلطان الواسعة أرجاؤه ويطلب من الحرس السماح له بمقابلة السلطان، بعد محاولات كان له ما أراد، يطأطئ رأسه، محيياً السلطان، بقوله:

-العظمـة والجلالـة لمولانـا السلطان (يشير عليه السلطان بيده اليمنى قائلاً):

-هـات ما عندك أيها الرجل، إن كنت مظلوماً فأنا منصـفك وإن كنت مسلوب الحق أنا راده لك... انشر ما في صدرك...

الدلاّل مبتسماً:

-عفـوك أيهـا السلطان، لا هذا ولا ذاك، إن سبب حضـوري، واقعـة أذهلتني وأطلب من مولاي السلطان السماح بسرد قصة العشب الذهبي.

(يشـجعه السلطان بإيحاء من ملامحه، فيطلق الدلاّل العـنان للسـانه يصـول ويجول واصفاً الزمان والمكان بأوصاف شتى أثارت فضول السلطان وحركت فيه سلطة القـرار فأمر أحد حجابه بإحضار العجوز ومن معها قبل

غروب شمس ذلك اليوم).

وغابت الشمس في الأفق وفي القصر أشرقت شمس أخـــرى إنهـــا الفتاة مرجانة رفقة العجوز وأخيها الغزال أدخلهم حاجب القصر، فبهت السلطان لجمالها الباهر، كان ســـحرها يســـري فـــي النفوس كالموج في امتداده، جاء الســـلطان في الحين بالشعرة الذهبية وقارنها بشعر الفتاة فإذا بها تشبهه..

-يا لها من صدفة عجيبة!!

قالهـــا الســـلطان وهو يهش لوجودهم بالقصر... ثم أكـــرم حضـــورهم وطلب منهم الإقامة في جناح الضيافة ثلاثة شهور لعلاج الغزال.

وجاء يوم الصبح الثاني ومعه وفود الأطباء والعلماء والعـــارفين بعـــلوم الدين، كانوا يصلون زرفات ووحدانا تلـــبية للنداء العاجل الذي أصدره السلطان إلى عمّاله في الأقـــاليم، ومـــع الأصيل كانت ساحة القصر تعج بذوي الأفهـــام والعقول النيرة والعارفين بسداد الرأي في الطب والحكمـــة، هـــا هـــم ينتظرون ظهور السلطان، أعناقهم تشرئب إلى الشرفة المهيأة له لمعرفة سر جمعهم.

وبعـــد زمن قصير أطل السلطان وحياهم بإشارة من يـــده ثـــم أمر حاجبه إحضار الغزال فأحضره في الحين، توجه السلطان بخطاب مطول للحاضرين تحدث فيه عن

الحيـــاة وأســـرارها والخالق وقدرته، ثم طلب من الجميع البحث عن علاجٍ للطفل الغزال كي يعود لصفته البشرية خـــلقة وخـــلقاً، لـــم يخف الحاضرون اندهاشهم وراحوا يســـبحون ويحوقـــلون.. تناظروا فيما بينهم وشرعوا في التفكير والبحث وإجراء التجارب..

خـــلال فترة العلاج والضيافة أعجب السلطان بالفتاة مـــرجانة ســـلوكاً وجمالاً وتعلق قلبه بها، فعرض عليها الزواج... وافقت الفتاة مرجانة لكن مهرها كان غالياً، إذ طلبت من السلطان الوعد بعلاج أخيها حتى الشفاء التام، وقـــبل الســـلطان شرطها،، فأقاما عرساً بهيجاً رقص فيه الغـــزال كـــثيراً وعاشـــا أياماً سعيدة وعيشاً رغيداً تملؤه المودة والرحمة ويزينه التفاهم...

***

مـــن مرافق القصر الترفيهية المتحف الحيواني الذي يجمـــع فـــي أروقته أصنافاً عديدة من الحيوانات الأليفة والمتوحشة، زاره السلطان رفقة زوجته فسرّت بما رأت وقالت في نفسها عندما مرت بجناح الغزلان:

-ربما يوجد في هذا السجن الحيواني من كان إنساناً وشرب الماء السحري فتحول إلى غزال، وصارت تتردد على هذا الجناح كل أسبوع تبحث عن سرّ ما.

***

وفـــي يوم من الأيام اضطر السلطان للسفر، فأخبر زوجته بعزمه ثم وضع في أصبع من يدها اليسرى خاتم الســـلطنة، وأوصــــاها باستعماله عند الضرورة.. ودّعها ومشـــى فشيعته بنظرات ينبعث منها الحب والاعتزاز، ثم عــادت إلى جـــناحها كـــي تستريح قليلاً ولتختلي بنفسها فتنظر إلى بطنها المنتفخ، مبهورة بالحمل، فخورة متشوقة لـــلمولود الأول، الـــذي ستأتي به هدية إلى السلطان بعد عودته..

فـــي غيـــاب السلطان عن قصره جاء فقير في ثياب باليـــة يطلب صدقة، كان الوقت أصيلاً، إنه الزمن الذي تخـــرج السلطانة إلى شرفتها تتأمل الكون وتودع الشمس وهـــي تلبس عباءتها الصفراء مستعدة للنوم خلف الأفق، وقع بصرها على السائل يرفع يده نحوها، فاقشعر جسمها وأحســـت بشـــعور غـــريب يغمرها، طلبت من الحراس إدخالـــه إلى الساحة... نزلت من الطابق العلوي مسرعة واقـــتربت منه فتعرفت عليه... نعم هو أبوها العجوز.. عانقـــته فاحتضنها وبكيا، أطعمته حتى شبع وسقته حتى ارتـــوى وألبســـته أزهى الثياب حتى دفئ وشعر بالراحة والطمأنيـــنة، وحدثـــته كثيراً عن رحلة العذاب والمتاعب فقال لها بصوت حنون:

-إن دوام الحال من المحال، وإن الله مع الصابرين.

وعندما أراد مغادرة القصر وضعت مرجانة في يده كيس فطائر محشوة باللحم ثم التمست منه عدم فتح الكيس قبل الوصول إلى البيت مع حفظ سر وجودها عن زوجته وابنته.

وعاد الشيخ إلى زوجته وابنته فرحاً مسروراً وحائراً في أمر ابنه الغزال ظريف... فتحت الزوجة وابنتها الكيس فإذا الذهب يتدفق من بين الفطائر، قطع تتساقط فتحدث رنيناً وتلمع فيتحول البريق إلى توهج يثير النفوس الطامعة.

طلبت المرأة من زوجها الذهاب إلى السلطانة لشكرها رغبة منها في المزيد من الذهب، ولم يمانع الشيخ لأنه تعود الطاعة والانصياع وعلم أن مقاومته لها ستبوء بالفشل لا محالة.. وفي اليوم الموالي ذهبا ترافقهما ابنتهما (عسلوجة)، وكم كانت المفاجأة كبيرة للزوجة وابنتها عندما تعرفا على السلطانة التي أكرمت ضيافتهم جميعاً، ندما وطلبا منها على العفو وكان لهما ذلك.

وبعد ضيافة ثلاثة أيام قرر الشيخ العجوز أخذ زوجته وابنته (عسلوجة)، ومغادرة القصر خشية وقوع ابنته السلطانة ضحية مكر جديد تدبره لها زوجته... وعندما علمت السلطانة مرجانة بقراره وافقته لكنها طلبت

منه السماح لعسلوجة بالبقاء معها في القصر أياماً.. فكان لها ما أرادت..

***

ذات ضـــحى يوم جلست السلطانة مرجانة في حديقة القصـــر عـــلى حافة البئر تتأمل هندسته الرائعة وبجانبها أخـــتها عســـلوجة، ثم شرعت مرجانة في تسريح الشعر الذهـــبي، المـــتماوج الألوان، وأثناء ذلك استيقظ في قلب عســـلوجة هـــاجس المكر القديم واشتعلت نار الغيرة في فؤادهـــا فأظلمت الدنيا أمام عينيها، ولم تشعر بالراحة إلا بعـــد أن دفعـــت بالسلطانة إلى أعماق البئر ثم عادت إلى جـــناح الخدم بالقصر هادئة النفس كأنها لم تفعل شيئاً، بل طلـــبت منهم سبع قدور لتقديم الغزال وجبة شهية توضع على مائدة السلطان العائد من سفره البارحة فقط.

لكن الغزال عندما رأى ما رأى من قدور نطق فزعاً وأسرع نحو جناح السلطان فأيقظه من نومه وهو يقول:

-دعونـــي... دعوني... أودع أختي، أذهب إليها في البئر، ثم افعلوا ما شئتم!! وأغمي عليه لعدة ساعات.

(يـــا خويـــا، يا ولد أما وبابا سبع قدور تتغالى سبع مواس تتسانى هكذا كانت السلطانة ترثي أخاها الغزال من داخـــل البئر باكية شاكية في حزن، بعدما سمعت الحرس يتحدثون في أمر ذبح الغزال دون أن ينتبهوا لها)، حاولت

مناداتهم لكن حنجرتها لم تقو على التصويت لهول ما وقع لهـا عـند رميها في البئر... حتى إنها وضعت حملها، توأميـن داخـل البئر،،، وبقدر فرحها الشديد بهما كانت خائفة عليهما من أذى الماكرين...

أعلن السلطان حالة الطوارئ في البلاد وأخبر الجيش بالكارثـة فهلع كل من سمع الخبر، توجه الجميع للبحث عن زوجة السلطان في آبار المدينة، بينما ذهب بنفسه إلى بـئر عتيقة محفوفة بالحشائش في إحدى حدائق القصر، وقـف ينظر داخلها، وصل مسمعه صوت الألم المنبعث من أعماق البئر ممزوجاً بأنين الحزن وسمع صوت وليد يبكي صباه، لم يتمالك السلطان نفسه فحاول الارتماء في البئر لإنقاذ زوجته المشرفة على الهلاك لكن حراسه كانوا أسـبق منه إلى دخول البئر المرعبة وبعد حين من الجهد والمعاناة خرج الجميع من البئر في حالة يرثى لها.

كان المشهد مؤثراً، والموقف عصيباً وكانت المفاجأة كـبيرة عند رؤية الصبيين يتعلقان بثديي أمهما، احتضن السلطان زوجته النفساء مع الصبيين، احتضنهم جميعاً ثم حمـل الطفـلين الجميـلين بفرح كبير وأعلن إنهاء حالة الطـوارئ وإقامـة الاحـتفالات في كل الأقاليم تكريماً لزوجته ولبنيه... وكان عقاب الفتاة عسلوجة على فعلتها الشـنعاء الـنفي الدائـم خارج السلطنة، بينما اختار والد

السلطانة مرجانة البقاء قرب حفيديه الصغيرين يرعاهما ويتأمل نموهما.

تزامنت الاحتفالات بوضع العلماء والأطباء اللمسات الأخيرة لبحوثهم وتجاربهم حول إبطال مفعول الماء المسحور.

وفي غمرة البهجة والسرور بنجاة السلطانة من الموت المحقق وبازدياد الأميرين الصغيرين أعلن العلماء والأطباء والحكمة عن اكتشاف دواء جديد يعيد للشاب ظريف الغزال هيئته البشرية الأولى التي كان عليها قبل أن يشرب من وادي السحر، فأطرب هذا الخبر العائلة الحاكمة وكل من كان في البلاد، وقدّم العقار إلى الغزال ظريف في الحين وبمجرد تناوله مع جرعة من زيت الزيتون بدأت صفاته الجسمية تتغير والعلماء يشاهدون.

كانوا جميعاً في المخبر الملكي في صمت رهيب كأن الطير على رؤوسهم وما هي إلا دقائق حتى عاد الشاب إلى حالته الطبيعية. إنسان جميل، شاب في مقتبل العمر،، بهي الطلعة وسيم الوجه،،، فازدادت الفرحة في القصر وتعانق الجميع، السلطان مع السلطانة والشيخ وابنه ظريف ومعهم الصبيان الصغيران...

تنفست الجدة (زينب) الصعداء وهي تشرف على نهاية الحكاية الأسطورة، ثم قالت:

-وهكذا يا أحفادي الأعزاء،، عاش الجميع في سعادة وهناء ردحاً طويلاً من الدهر، إلى أن حضر "هادم اللذات وميتم البنين والبنات، مخرب القصور ومعمر القبور" فمات من مات وعاش من عاش وسبحان الحي الذي لا يموت)...

ثم تفقدت الصغار فوجدتهم نائمين، فنامت بالقرب منهم بعد أن قالت:

-هكذا ينامون كلّ ليلة وفي الليلة المقبلة يطالبونني بإعادة الحكاية، ثم استدركت قائلة:

-إنها الطفولة.... يحكمها قانون عجيب!!

■■■

الأميرة السجينة

قـال الـبرّاح: يـا نـاس يا سامعين... يا صغار يـا كـبار... هكذا الدنيا تلعب بأقدار الملاح... يوم في الأفراح وعشرة في الأتراح...

قـد نـتعود أشياء ونألفها،، نحببها إلى أنفسنا لأجل المـتعة،، هكذا يقتحمنا الزمن دون أن نتخذ له في النفس مكانـاً،، فـالأحداث المتتابعة،، تختلف من رواية نعرفها لأخـرى صـاغتها لنا الجدة "زينب" التي لا تتوانى عن مؤانسـتنا لتخفف عنا وطأة طول الليالي.... ها قد بدأت الحكاية، قصته من عهد الأجداد لنتابع جميعاً:

على سفح الجبل العنيد تتربع دولة شامخة في عزها، هادئـة في سير نظامها السياسي والاجتماعي،، تحيط بها البسـاتين باخـتلاف زهورها ورقصات فراشاتها وزقزقة عصـافيرها وتغاريد طيورها الراقصة بين أفياء الأشجار المنتشرة على صدر البلدة...أو لنقل البليدة لأنها صغيرة...

جلس الحاكم ذو اللحية البيضاء والشاربين الطويلين مــزهواً ببرنوســه الأحمــر وحذائــه الجلدي الموشوم برســومات مختلفة واضعاً في رقبته قلادة وخاتماً يلمعان لمعان البرق الخاطف كما قبلتهما الشمس بأشعتها فيزداد المكــان ضــياء... تحت الشجرة التي اعتاد الجلوس في ظلالها يتزين المجلس بعدل الملك الذي بث الاطمئنان في القــلوب ونشر الأمان في سائر أنحاء المملكة،، والورود الحمراء المتفتحة تستقبل قطرات الندى محتضنة إياها في حــنو عجيب وحتى زهور الأقحوان تبتسم هي الأخرى سعيدة بمحاذاة السلطان....

وهــو فــي جلسته الهادئة يفكر في العريس المفضل لابنته الوحيدة "كنزة"،، الموضوع الذي شغل باله كثيراً،، بــدأت تحــوم حولــه فراشة بلباسها المرونق،، تحط هنا وتطيــر هناك عالية بخفة عجيبة،، يترقبها الملك بنظرات شاردة،، يتبعها ببصره كأنه يستشيرها في طريقه لاختيار موفــق لشاب من بين مواكب العرسان التي تتوافد عليه لطلب الأميرة "كنزة"،، وكل واحد يتميز بصفات محبوبة،، كــالقوة وطيــبة القلب والحنكة والدهاء....... واصلت الفراشــة ترنحها برقصاتها أمامه ثم اختفت بين الورود، فــتش عــنها ببصره فلم يعثر عليها،، وهنا راودته فكرة طــريفة حول موضوع زواج ابنته إذ قرر إجراء امتحان لخطاب ابنته... والفائز منهم سيصبح صهراً له!!

إنّ مهرها سهل لكنه ممتنع..... وجاء اليوم المعلوم، يــوم الامتحان الذي يكرم المرء فيه أو يهان، فجلس على كرســي العرش وعلى رأسه تاج الملك واضعاً يده على خــده، كم كان ذلك الكرسي مغرياً يومض ببريق السلطة الذي يسيل لعاب الطامعين والطامحين،، بدا شكله رائعاً إذْ كانت تزينه نقوش أصلية مستوحاة من عالم الطبيعة، ومن الفــن التقليدي الأصيل لأجداد الأجداد، حتى أرجله تشبه رؤوس الغــزلان، وعــليه عــلّق جراب وبداخله شيء مجهول،، طلب الملك من الشاب معرفته فياله من امتحان! وياله من مهر وياله من مطلب عسير..!!!

***

تقــدم إلى الســلطان حشــد من الفرسان يطلبون يد الأميرة يجربون حظوظهم في يوم مشهود حاولوا معرفة مـــا بداخل الجراب.... لكنهم أخفقوا كلهم في الامتحان، فيهم من قال:

-يوجد تفاح وآخر قال: ذهب،، ومن قال: رأس قرد وآخــر قال: كتب،، وآخر قال: ثعبان... وعاد كلّ واحد مكســور الخاطــر والوجــدان يقول معزيّاً نفسه: المهم المشاركة.

وفـــي نهاية المنافسة قدم إلى قصر السلطان،، شاب وســيم،، يــرتدي ملابــس متواضــعة،، تسبقه ابتسامته

المشـــرقة الـــتي تخفي ثقة وشجاعة، كما يخفي برنوسه البنفســجي المــتدلي وراءه المشــدود إلى رقبــته أناقته المــتميزة،،،، ورغــب فـــي المشاركة لمعرفة ما بداخل الجراب.,...........

حيـــنما رأته الأميرة أعجبت بجماله فراحت تومئ له بإيحـــاءات وإشــارات تدل على ما بداخل الجراب،، من خلف الستار كانت تبدي له في يدها وردة حمراء......

-وأجاب الشاب الوسيم قائلاً:

يوجــد داخـــل الجـــراب ورد أحمر.... فتهلل وجه السلطان بالبشر وهنأ الشاب على النجاح،، ثم زوّجه ابنته "كـــنزة" وفـــاء بعهده،، فأقيمت الأعراس البهيجة الحافلة بأهـــازيج الطرب المليئة بما لذّ وطاب من طعام ...لحوم وفواكه وحلويات.........,..

***

وذات يوم ليس كغيره من الأيام، في الصباح الباكر تحول الشاب إلى أصله،،، إلى صورته الحقيقية،، وحش غابي،، حمل الأميرة عنوة إلى قمة الجبل بعدما كمّم فمها بقطعـــة مـــن القماش كي لا تستطيع الصراخ وفي قلعته أغـــلق حولهـــا كـــل الأبواب الموصدة بالحديد وأرهبها بالتهديد والوعيد...,

احـــتار السلطان وحزن لغياب ابنته الوحيدة،، ومما زادِ في حزنه وعذابه جهله بمصيرها وأخبارها.... فكّر ملياً فخطرت بباله فكرة،، تذكّر حمامة السلام البيضاء،،، الحمامة الزاجلة،، حاملة بريده إلى الأمراء والسلاطين في كـــل البلدان... فكتب مخطوطاً وعلّقه برجلها اليسرى... وأوصاها قائلاً:

-يـــا حمامة السّلام هذا الكتاب خذيه أمانة إلى ابنتي المهاجرة،، ابحثي عنها في الأرض وفي السماء، في كل مكان بالمعمورة واحذري أن تسلميه لغيرها.. ولا ترجعي إلى القصـــر حـــتى تبلغيها الرسالة وتأتي بأخبارها، زينة البنات.

طـــارت الحمامة تقطع الجبال والوديان،، تمر على القصـــور والجسور والمدن والقرى.. باحثة عن الأميرة الغائبة،، تواجه العواصف وزمهرير الرياح ورذاذ المطر ووابله...

وصـــلت الحمامـــة البيضـــاء إلى قلعة حديدية حيث أخـــبرها هـــاجس غريزي بواسطة حواسها أن صاحبتها الأميـــرة موجودة في هذه القلعة المهجورة،، فبدأت تحوم فـــي فضاء القلعة واستمرت في رقصاتها الإستطلاعية. حـــتى لمحـــت الأميـــرة "كنزة" قادمة نحوها والابتسامة الحزينة تفترش محياها الذابل، نظرت إلى الحمامة الطليقة

مستبشرة كسجينة اقترب موعد تسريحها، وهتفت:

-آه، أيتها الحمامة البيضاء،، يا رائحة الأهل القادمة،، يا حمامة السلطان العزيز هل تعرفت على التي كانت تقدم لك الحب؟! اقتربي،، حطي على ركبتي هذه،، قبل عودة الوحش الشرس، الذي أغراني بزيف جماله فلم أسأل عن علمه وأخلاقه.

وأحسّت الحمامة بشعور الأميرة فحطت على ركبتيها،، احتضنت الأميرة الحمامة وقبلتها بحرارة ممزوجة بدموع الشوق والألم ثم اكتشفت الرسالة فأخذتها من رجلها وقرأتها،، فهمت ما احتوته فبكت وكتبت في الحين إلى والدها تحكي له مرارة العيش والمعاناة التي تمر بها عند الوحش (الشاب) لقد ندمت كثيراً على زواجها واختيارها المتسرع للجمال الغادر....

طارت الحمامة عائدة بالمرسال والأخبار إلى السلطان... مسك السلطان الرسالة فرحاً،، وعند قراءة المراسلة شعر بنوبة الأسى تحتويه من جديد،، طلب إحضار "الشيخ المدبر" كي يبدي له عمّا يحس به ليشير عليه قصد إنقاذ ابنته من هذا الشاب المتوحش وليسأله:

-هل يفلح الجيش في استعمال القوة لاستعادة الأميرة كنزة المختطفة؟!

أقام الشيخ المدبر في جناح خاص، وعندما عرض

عليه الملك الأمر لم يوافق على إرسال الجيش إلى القلعة الحديديـــة، لأن الشاب المتوحش قد ينتقم من الأميرة عند رؤية الجند قادمين نحوه، وأشار عليه بالذهاب إلى القلعة والتســـلل داخلها بحكمة وشجاعة، ودلّه على فرسان يثق فيهم، شباب أبناء عجوز يمتازون بهاتين الصفتين،،،،،،،،

***

ذهــب الســلطان حيــث العجوز وروى لها مرارة معاناتــه بعــد اختطاف ابنته، ووعدها بالعيش النعيم هي وأولادها إن أعادوا له فلذة كبده الأميرة "كنزة"...

فكــرت العجوز كثيراً ملياً، وبعد تمحص وتدقيق في الموضـــوع طلــبت مــن حراس الملك إحضار صوف الحرير، فأحضره الحراس على جناح السرعة...

شــرعت العجــوز الأرملة في حياكة الصوف حيث جلســت على الأرض واضعة بين ركبتيها المغزل وبدأت تغــزل صوف الحرير، ثم قامت بنسجه، حتى أخذ شكل ثــوب مرقوم بأشكال وألوان زاهية، وحين أحسّت بقدوم أبــنائها الســبعة طلــبت من الملك الاختفاء خلف الباب الخشبي...

دخــل الشبان على أمهم المنهمكة في الحياكة فسعدوا لنشـــاطها ثم بدؤوا يسألون ويستفسرون عم تصنعه أمهم، ولمن هذا القميص الجميل، دون أن يشعروا بوجود غريب

خلف الباب.. ردّت الأم وهي تبتسم:

"لمن يستحقه منكم يا أبنائي، للشجاع الحكيم... الذي يحقق لي أمنية لكنها محفوفة. بالمخاطر..

(تتـــنهد الجدة "زينب" الكبدة حنينة قلبي على وليدي انفطـــر وقـلب وليـــدي على حجر وتواصل وقد أدمعت عيـــناها، فـلقد تذكـــرت ابـــنها المهاجر وراحت تردف كلامها):

-إيه يا أبنائي....

لقـــد بـــدأ الإخـــوة في استعراض قوتهم وشجاعتهم والسلطان خلف الباب يستمع، يقطب حاجبيه تارة ويبتسم تـــارة أخـــرى، ثـــم خرج من وراء الباب وخاطبهم وهم مشدوهين أمام المفاجأة الغريبة، فقال:

-إذن الحمـــد لله لقد عثرت على أشجع الفرسان، ما عليكم أيها الفرسان سوى إرجاع ابنتي من قبضة الوحش وأعدكم بالثراء، والجاه الذي تريدون إن وفقتم في مهمتكم بمشيئة الخالق...

***

قـــاد الأخ الأكبر إخوته الستة، كان يمتاز بدقة النظر وسداد الرأي وحنكة عالية ودهاء كبير، وهم يمشون خلف الحمامـــة الطائرة، يقطعون أشواطاً للعثور على الأميرة،

ومـــا هي إلاّ أيام حتى رأوا على قمة الجبل قصراً منيفاً يــلفه الضـــباب كالـــثوب الشفاف تحوم حوله الخفافيش، تحرســـه مـــن كـــل غريب يقترب ولو من أسوار القلعة الحديدية المحيطة به..........

لقـــد كان منظر القصر مرعباً يدخل الفزع في قلوب المشـــاهدين، لكن الإخوة السبعة لم يتأثروا لذلك ولم يثن من عزمهم الشكل الخارجي الرهيب...

وقـــف الإخـــوة يتشاورون ويخططون للدخول وكذا يرصدون حركة الوحش حين دخوله. ولما عاد في المساء وفـــتح الأبـــواب الحديدية السبعة ثم غلقها وراءه بمفاتيح مختلفة.. قال كبيرهم:

-إنه سجن يحيط بالأميرة الجميلة...

في منتصف الليل تسلّل الإخوة داخل القلعة الحديدية بواسطة جبل طويل، تعلقوا به ثم نزلوا ساحة القصر في هـــدوء تام... سمع الإخوة السبعة بعدما اقتربوا من باب القصـــر الحديـــدي شخير الوحش ينبعث من جناح النوم مدوياً في سكون الليل كشلال الماء المتدفق من الأعالي، صـــعد الإخـــوة مدرجات القصر الواحد تلو الآخر، وفي مهـــارة عجيبة، استطاع الأخ الأكبر فتح الأبواب المغلقة والوصول إلى مخدع الوحش حيث وجد الأميرة وضفائر شـــعرها مشدودة بيده الغليظة،،، تنام الأسيرة وخصلات

ومـــا هي إلاّ أيام حتى رأوا على قمة الجبل قصراً منيفاً يـــلفه الضــباب كالــثوب الشفاف تحوم حوله الخفافيش، تحرســـه مـــن كـــل غريب يقترب ولو من أسوار القلعة الحديدية المحيطة به..........

لقــد كان منظر القصر مرعباً يدخل الفزع في قلوب المشـــاهدين، لكن الإخوة السبعة لم يتأثروا لذلك ولم يثن من عزمهم الشكل الخارجي الرهيب...

وقـــف الإخـــوة يتشاورون ويخططون للدخول وكذا يرصدون حركة الوحش حين دخوله. ولما عاد في المساء وفـــتح الأبـــواب الحديدية السبعة ثم غلقها وراءه بمفاتيح مختلفة.. قال كبيرهم:

-إنه سجن يحيط بالأميرة الجميلة...

في منتصف الليل تسلّل الإخوة داخل القلعة الحديدية بواسطة جبل طويل، تعلقوا به ثم نزلوا ساحة القصر في هـــدوء تام... سمع الإخوة السبعة بعدما اقتربوا من باب القصـــر الحديـــدي شخير الوحش ينبعث من جناح النوم مدوياً في سكون الليل كشلال الماء المتدفق من الأعالي، صـــعد الإخـــوة مدرجات القصر الواحد تلو الآخر، وفي مهـــارة عجيبة، استطاع الأخ الأكبر فتح الأبواب المغلقة والوصول إلى مخدع الوحش حيث وجد الأميرة وضفائر شـــعرها مشدودة بيده الغليظة،،، تنام الأسيرة وخصلات

اهتزت الأرض تحت أقدام الإخوة السبعة فاستيقظوا من نومهم حائرين،، الوحش يتقدم نحوهم والشرر يتطاير من عينيه......

كان لأحد الإخوة ساقان طويلان فقرر استعمالها،، قال لإخوته:

-لي فكرة،،، نفرُ من الوحش بعد أن نشعل النار في الغابة فيحترق هو وننجو نحن مع الأميرة...

عارضه أصغرهم قائلاً: هل تريد أن نحرق أنفسنا ونحن أحياء؟ وهل نسيت أن الشجرة مقدسة في أعرافنا ولا يجوز حرقها؟! أين شجاعتكم؟

طمأنهم أخوهم الأوسط: اتركوا الأمر لي فسوف أخرج سيفي في وجهه وأقاتله،، كما وعدنا أمنا والسلطان هذه هي الشجاعة،، هل نسيتم؟ وإذا استلزم الأمر سأستدعيكم فوراً..

لكن إخوته قالوا: يجب أن نواجه الوحش جميعاً كرجل واحد وليكن ما يكن،،

وقبل أن يصل الوحش إلى المكان هاجمه الشبان بقوة الأسود وشجاعة الأبطال وخفة الطيور ومهارة الفرسان،، فانهالوا عليه بوابل من ضربات السيوف حتى مزقوه

أحمــد صحبة الأميرة ففرح السلطان فرحاً عظيماً،، وأقام حفــلاً متواصلاً تم خلاله مكافأة الإخوة السبعة لعملهم،، لكن الصراع بدأ بينهم...

***

تقول الجدة "زينب": هل تعلمون لماذا يا أبنائي، لأن كــلّ واحــد أراد أن يــتزوج الأميــرة الحسناء وعندما أستشيرت الأميرة كنزة في الأمر اختارت الشاب الذي فك قيدها وضفائرها من يد الوحش،،، قائلة:

–جمال الرجل في عقله وليس في جسمه أو جيبه..

قــال الــبرّاح: وهكــذا تنتصر الحقيقة على الزيف وينكشف كل غادر طال الزمان أم قصر....

■■■

عروس الجبال

قصـــة ليســـت كغيرها من القصص، تميزها عذوبة الأفكـــار ونكهـــة الأحـــداث، وطرافة المواقف، وغرابة الوقـــائع، إنهـــا حكاية جزائرية احتفظت بها القرون في ذاكرة الأيام....

يومئذ كانت الطبيعة في عيدها تتباهى... تختال من سحرها.. تغازل الأوراس بأسرارها البديعة. الأوراس آية قدسية وهبها الخالق البديع للأرض في عيد الطبيعة، هذه اللوحة الفنية فسيفساء البهاء العذرى.. نقرأ في تضاريسها المرســـومة عـــلى جـــبين سكانها ماضي أمة، يجر خلفه حضـــارة تبدأ من فجر التاريخ، في رحمها قصص كثيرة لمواقف الرجولة والبطولة....

الأوراس عـــالم فـــريد من نوعه، يبدو من بعيد كأنه كتـــلة ضـــخمة، تشـــرق على الدنيا... يمنح أفقها أشعة الشـــمس ونـــور القمـــر ووميض البرق وحبات البرد...

فتتردد في اقتحام هذا العالم العجيب لأن التوغل فيه صعب..

كل الطرق تؤدي إلى الأوراس، أولها الطريق الشمالي حيث المرتفعات القسنطينية تفترش السبخات... وأجملها الطريق الجنوبي المزين بحدائق النخيل وواحات العسل والتمور الممتدة كسجادة منقوشة بسطها الأوراس لعروس الزيبان بسكرة!!.

إن من يتوغل في جبال الأوراس يجد نفسه أمام منظر طبيعي في غاية الجمال والتنوع، وجه الأوراس كوجه التاريخ.. صحراء من الصخور تلد صحراء من الحصى.. قمم ووهاد.. مرتفعات ومنخفضات.. أودية كثيرة تعانق رياضا ساحرة، وحدائق من النخيل تناظر غابات من شجر الأرز.. أو هذه الهضاب العليا التي تتزوج الفصول فتلبس لكل واحد حلته وأجملها الحلة الثلجية البيضاء عندما تنعكس منها أشعة الشمس، فتطبع قبلات الصباح على تاج الأوراس الناصع البياض... فيبدو كسبيكة ليس فيه موضع أحسن من موضع.

في وسط هذه الطبيعة الغريبة تبدو القرى في شكل مجموعات من الحصون والقلاع الحجرية المحروسة بأسوارها العتيدة المعزولة عن العالم في رأس جبل أو شاطئ صخري كأنها في سبات عميق....

"الشـــاوية" ســـكان الأوراس منذ الأزل، يعيشون في مـــنحدرات الجبال التي تحتضنهم كالأم الحنون، يحتمون بهـــا مـــن غضب الطبيعة، ويستمدون منها لون بشرتهم، ومن صخورها طبيعة مزاجهم... الصلابة والجفاء.. ومن ثـــم تميزوا عن غيرهم، وكانت طبيعة الأوراس الحارس عـــلى وحـــدة الأصـــالة للسكان فحافظت على خصائص الأهالي...

قاوم "الشاوية" امتزاج الأجناس واشتهروا بصد الغزاة مهما كانت قوتهم.. وهكذا تمكنوا من الحفاظ على عاداتهم وتقاليدهم ولهجتهم ومعتقداتهم و و و ... الخ.

المقاومـــة في الأوراس عمرها كعمر الزمان... من الـــرومان إلى الاحـــتلال الفرنســـي مدة تزيد عن ألفين وخمسمائة سنة، كان أبطال "الشاوية" على ثغورها يلحقون الهزائم بما هو غير أوراسي وكل معاد للشاوية....

في رحاب الأوراس... تحيط بنا الشواهد والأحداث الـــتي نســـجت الذاكـــرة الشعبية بقصص عجيبة غريبة، كقصـــة "عائشة" هل تعرفها؟ ربما.. لكن إذا كنت شاوياً فأنت محظوظ باستيعاب أحداث قصتها...

إنها "عائشة" ملكة السحر والجمال... عائشة البلهاء.. تنافس الشمس في إشراقها والربيع في بهجته وهي ترفل فـــي لباســـها الموشـــوم بأوسمة الشاوية، تعيش في قلب

الأوراس متنقـلة كالأميـرة الخضراء بين وادي الأبيض ووادي عـبدي.. آه.. أين أنتم أيها الأمراء لكي تستمدوا من نضرة وجهها آيات الفتنة والدلال؟!.

ها هي عائشة الجميلة بين الورود كالفراشة المغرمة بجمـال الحقـول، عائشة تجد بيضة غريبة تتأملها ملياً، تحمـلها على عجل، كأنها عثرت على كنز ثمين، تلتفت في جميع الاتجاهات ثم تجري مهرولة كالمجنونة... إلى مكـان قصـي.. لتضـع البيضـة فـي مكان أمين بين الصخور..

ماذا لو كسرت "عائشة" البيضة واتلفت محتواها؟ هل تستطيع ذلك يا ترى؟!.

وتمر الأيام.. ترتاد خلالها "عائشة" المكان... البيضة تفقس.. يخرج منها مخلوق صغير على شكل ثعبان.

يا للغرابة؟!. لم تأبه به "عائشة" واصلت تجوالها بين الحقول بحثاً عن نفسها.. ماذا لو قتلت "عائشة" الثعبان.. هـل تصبح لقصتها نهاية؟ يكبر ويكبر الثعبان الصغير.. إلى أن يصـير عملاقـاً يهـدد أمـن السكان في حياتهم ومواشيهم ومراعيهم...

احـتار السكان في الأمر أياماً كثيرة لكن حيرتهم لم تدم لقد أجبرتهم على اتخاذ قرار حاسم.. لابد من مقاومة الثعبان..

وبعـد قـتال مرير.. انتصر القرويون على العملاق وطـرحوه على الأرض صريعاً كالديناصور المتوحش، وتعـاونوا على إحضار أكوام الحطب لحرقه ومحو آثاره وكومـوا جسـمه بالحطب وأشعلوا النار، وسط الأهازيج والأغاني.. وبدأ الدخان يتعالى حاملاً رائحة الاحتراق... وفجـأة غطّت الحاضرين سحابة من النحل القادم من كل مكـان. اندهش الحاضرون وعادت الحيرة من جديد وهم يشـاهدون أسـراب الـنحل تقبل فتمتص إفرازات جسم الثعبان المحترق كامتصاصها رحيق الأزهار..

إنها الكارثة الكبرى.. السم في العسل.. هل سنموت جميعاً إذا ذقنا عسل النحل الممزوج بسم الثعبان؟.

-هكذا تساءل الحاضرون.. ثم انصرفوا يفكرون في مخرج للتأكد من أفكارهم المريبة...

-قالوا:

-"لابد أن يتطوع أحد للاختبار.. إما حياة أو موت"

لكن من يتجرأ على ذلك؟ من يغامر بنفسه؟

بعد صمت قصير كأنه دهر، نطق أحدهم..

الحـل عـند الشـيخ "بـوراك" نطعمه العسل لنرى النتيجة؟!

صفّق الجميع مبتهجين بالفكرة.. قائلين:

الشـــيخ "بوراك" في أرذل العمر.. على حافة القبر.. إذا مـــات مســـموماً فقد استراح من تعب الدنيا وقد أنهكه الفقـــر وأعجـــزه الدهر.. وبذلك نكون قد أنجزنا التجربة وعرفنا الحقيقة..

ولمّــا حان موسم الشهد والعسل.. بحثوا عن الشيخ "بوراك" حتى وجدوه وقد لجب الجنبان واحدودب الظهر..

وانطفأ نور البصر، "الفم راب والرأس شاب والظهر عاب وتفرق الأحباب.."

قـــدم العســـل المسموم إلى الشيخ المسكين.. ووقف الجميع في انتظار الموت المحتوم.. فأقبلت الحياة.! حدث ما لم يخطر على بال بشر، إنها المعجزة حقاً.!!

لقـــد اســـتعاد الشيخ الأعمى بصره من جديد بعد أن تجرع العسل.!!

لم يصدق الحاضرون المشهد وحتى الشيخ بدأ يتلمس الحاضـــرين بيـــن مصدق ومكذب! ثم بدأ يستعيد شبابه، فاســـود شـــعره واســـتقام ظهـــره وتـــزين فمه بالأسنان والأضـــراس وعـــاد ربيـــع العمـــر إلى جسمه كأنه يوم البعث..!!

ذهل الجميع.. وانبهر الشيخ لحاله ثم قال:

إن لله جـــنوداً من عسل.. هذا جزاء من يتوكل على

الله.. نعم لقد صدق من قال: اتق الله تر العجائب..

تأسف القرويون لسوء نيتهم.. وطلبوا منه الصفح والسماح لكن الشيخ عاتبهم قائلاً:

-أيها الأوغاد.. أردتم قتلي؟!.. طأطأ الحاضرون رؤوسهم وواصل الشيخ الشاب "بوراك" كلامه:

-إني أطالب بالدية المشروعة..

قال أحدهم في استحياء:

-أطلب ما شئت..

قال الشيخ "بوراك":

-ديّتي.. عائشة.. الزواج بعائشة زينة البنات..

فوافق والدها الذي كان حاضراً مع القوم.. تزوج الشيخ ديته "العروس عائشة" وعاشا ردحاً من الزمن في غبطة وسرور وأنجب أطفالاً أطلق عليهم أولاد عبدي..

ومع الأيام بدأ جمال "عائشة" يذبل كلما تقدمت في العمر رغم محاولتها الحفاظ عليه بأنواع العقاقير ولكن الزمن لا يرحم..

وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر؟!

وكلّما مرت السنون ازداد الشيخ الشاب فتوة وعنفوانا حتى صار كابن العشرين صحة وجمالاً.. فاختار فتاة

شـــابة اسمها "توبة" وتزوجها بعدما طلق "عائشة" البلهاء، تاركـــاً إياها مع أبنائها أولاد عبدي في ناحية خصبة من ضـــفاف الـــوادي، وسكن مع زوجته الجديدة "توبة" على ضـــفة الـــنهر الأخرى المقابلة فأنجب معها أطفالاً أطلق عليهم اسم "التوابة"..

وبـــدأ الـــنهر الذي يفصل بين المرأتين وذرية الشيخ يشهد في صمت ميلاد الفتنة... الصراع المرّ بين الإخوة الأشـــقاء... الإخوة الأعداء.. أولاد عبدي والتوابة أبناء الأب الواحد.

العـــداوة والبغضـــاء يـــنموان على ضفتي النهر.. فيرضـــعهما الأطفـــال مـــع حليب المرأتين... ويشربهما الكبار جرعات حقد من مجرى الواد الحزين.. ويتوارثهما أحفـــاد القبيلـــتين جيلاً بعد جيل.. ويلبس الأوراس رداء الخطر... ثم يعلن ثورة الغضب بين أبناء الشيخ الشاب، بـــلغة قاسية أدواتها كلها غيض وفيض، كرّ وفرّ، اعتداء فانـــتقام، حـــتى ســـكن الهـــلع قلوب الأهالي في القرى والمداشر، وانعدم الأمن في ربوع الأوراس وحلّت محله أعـــراس الـــدم مع زغاريد البارود في السفوح والوهاد، وسائر مرابع الشاوية.

لكـــن دوام الحال من المحال والأخوة لا تباع بالمال كمـــا يقال؟! ولأن الزمن طبيب فقد ضمد الجراح بهدوء

حتى التأمت، جرى ماء الوادي غسولاً طهوراً للقلوب السوداء فابيضّت، وأضاء العقل بحكمته والدين بنوره بصيرة المتخاصمين... فتعانق الجميع وامتزجت دموعهما فرحاً.. بالتسامح والمحبة بينهما وعندئذ صارت التوبة والعبادة عنواناً لقبيلة أولاد عبدي والتوابة.

وجاءت أيام العسرة تباعاً فالتحمت القبيلتان في صف واحد تحت راية الجهاد ضد الأعداء في مقاومة شهد لها القرن العشرين بالجلال، حتى تحقق النصر المبين، ولبس الجميع أثواب المحبة والهناء بعد الخلاف والجفاء... وغنى الأطفال للشمس في أعراسها أغاني السلم والعصافير والعطر... ليمتد ربيع الأوراس طول الدهر...

■■■

الفرسان السبعة

في قديم الزمان وغابر العصر والأوان، حدث ما لم يتصـــوره الحســـبان، أحـــداث غريـــبة عجيبة في ذاكرة الجزائر الشعبية....

ذاك الزمن الذي كانت فيه القصص فاكهة السهرات الممـــتعة. روائـــع نســـجتها مخيلة الإنسان قطعاً كسبائك الذهب موروثة من ذاكرة الأجداد الذين يروونها جيلاً بعد جيل.

قـــبل أن تـــروي لنا حكايات الماضي، تشعل الجدة "زيـــنب" القـــنديل وتذهب للتتوضأ.. تتأهب للصلاة.. الله أكبر.. صلاة العشاء.. تكبر.. تركع.. تدعو الله.. تسلم.. تطوي السجادة وتضعها جانباً وتنادي علينا:

يأتيها الواحد تلو الآخر، عدا "صوريّا"

تهتف الجدة:

"صوريّا" بسرعة، هيا بسرعة.

ترد عليها وهي تفرك ضفائر شعرها الذهبي.

-حاضر يا جدتي، أنا قادمة..

-اجلسي، أقص عليكم حكاية الأمير والحمامتين، تاريخها قبل ظهور الإسلام.

يبتسم الأطفال وكلهم شوق لسماع الحكاية:

-في زمن السلاطين والمماليك، وفي بلدة هادئة جميلة بحدائقها وبساتينها اليانعة ونافورات مياهها المتعالية التي تزيّن الساحات الكبرى، كان يعيش أمير وسيم بهي الطلعة، حسن الخَلق والخُلق.

توفي والداه "الملك وزوجته" منذ مدة تاركين وراءهما سبع بنات. قام الأمير الشاب على رعايتهن، وكانت الأخوات كالبدور في الحسن، جميلات لا يخرجن من القصر ولا يهتمن لما يحدث خارجه.

ذات يوم قرّر الأمير السفر لمراعاة شؤون البلاد والعباد حيث يتفقد سير النظام في الأقاليم.

ترك أخواته السبع في القصر يمرحن ويتمتعن بحياتهن كما يرغبن، يأكلن ما يتلذذن به ويلبسن من الثياب الرائعة ما يروق لهن..

بعـــد أيـــام عاد الأمير إلى قصره وكله شوق لمقابلة أخواته، كلّه بهجة بما رأى من عجائب الدنيا، لكن شاءت الأقدار أن تنكسر الفرحة في قلبه.. حيث علم من الحرس مـــا هـــو أغـــرب مما رأى.. أخواته قد اختطفن من قبل أشخاص غرباء...

في غياب الأمير الشاب.. هاجم القصر سبعة فرسان، اخـــتطفوا الفتيات الجميلات وذهبوا بهن بعيداً فأثار ذلك ذعراً وهلعاً كبيرين في المدينة.

غضـــب غضباً شديداً وأعلن الحداد في سائر أنحاء الممـــلكة، بـــدأت الحيرة تتملكه واليأس يدمرّه والغضب يمـــزقه وهو يحدق في ساحة القصر العريض البائسة من غيـــاب الأميرات،، ثم حوّل بصره إلى السماء هروباً من منظر القصر الحزين.

فجـــأة لمح في الأجواء حمامتين بديعتين تطيران من هـــنا وتحطـــان هـــناك، سعيدتين بين الحدائق والبساتين والمنابع والمرابع.

قفز ليمسك بهما.. جرى خلفهما.. لكنهما طارتا بعيداً وقـــف يرقـــبهما يائساً... وبعد حين التفتت نحوه واحدة، كـــانت كأنها تبتسم لـــه في دلال ثم وضعت أمامه رسالة وطارت:

-أيها الحائر.. ما بك.. لا تحزن.. إن أردت اللحاق بنا أو لقاءنا عليك اتباعنا إلى القصر وثمة يكون ما تريد...

***

أسرع الأمير إلى مربط الجياد، فاختار أسرع الخيول، ثم امتطاه كالفارس المغوار وسار لا يدرك سبيل الحمامتين الغائبتين عن الأبصار فاختلط الأمر عليه.

ومع الحيرة ترك حصانه يسير.. يسير.. دون أن يوقفه أو يشده ليعود من حيث أتى.

في طريقه الطويل اللامتناهي صادف الأمير صخرة في شكل هندسي تشبه رأس إنسان بعينيه وأنفه وفمه الواسع الذي يخرج منه الضباب، فزع الأمير لذلك المنظر الرهيب وزاد في رعبه صهيل جواده المتواصل، رفع رأسه ينظر إلى هذا الشكل فوجد أعلاه منصباً كقلعة ضخمة في مدخلها جسر يلج في أعماق حصن منيع.

وفي غمرة مخاوفه الممزوجة بأمله الكبير في العثور على الحمامتين قرّر دخول المبنى.

طرق الأمير الباب العظيم كثيراً ولما فتح له، ظهر الحراس في زيهم المزركش، أدخلوه وفرسه قصد ضيافته إلى حين استقباله من أهل القصر.

بعـــد فـــترة وجيزة خرجت سبع فتيات أنيقات وهن يضـــحكن دامعـــات العين من فرحتهن الكبيرة بالمفاجأة العجيبة.. لقاء أخيهن الأمير بعدما يئسن من ذلك.. وكان ابتهاج الأمير عظيماً، وفي إقدام الشاب المعروفة وموهبته في سرد الأخبار لم يترك مجالاً للصمت، بل تحدث وهو كلـــه ثقـــة عن سعيه في العثور عليهن وعلى الحمامتين وكيف شاءت الظروف أن يلتقيا بعد طول غياب...

لكـــن غضـــب الأميـــر على الفرسان الخاطفين بقي مشتعلاً رغم سعادة أخواته بهم بعد الزواج منهم.

قالت له إحدى أخواته: لقد خرجنا من القصر طوعاً ولم نكن مختطفات يا أخي العزيز.

وقبل أن يستفسرها في ذلك...

عـــاد الفرسان من حيث كانوا وهم مسرعون لرؤية زوجـــاتهن... أخـــبرت الجميلات الفرسان بقدوم أخيهن العزيـــز وطلـــبت كـــل واحـــدة من زوجها ارتداء أفخر الملابس واستقباله بكل حفاوة، وكان لهن ما أردن، حيث أقيمت الأفراح سبعة أيام احتفالاً بالضيف الأمير الذي لم يـــرض بالمصالحة واشترط مقابل ذلك تحقيق أمنيته التي تشغل باله...

طلب الفرسان من الأمير أن يبدي رغبته في مال أو

جاه على أن تُلبى له طلباته مهما كانت؟

شكرهم الأمير على حسن معاملتهم له وطلب منهم المساعدة في العثور على الحمامتين الجميلتين.

توجه الفرسان خارج القصر ليعرضوا الأمر على أبيهم الساكن في مسكنه القريب من القصر، كانوا يريدون منه تحقيق رغبة صهرهم في كيفية الوصول إلى الحمامتين اللتين كانتا سبباً في التعرف على الأميرات السبع.

نادى الفرسان أبيهم المنهمك في أكل لحم القنفذ.. طعامه المفضل كل يوم..

-يا أبانا العزيز.. أيها الفارس الجبّار.. يا كبير القوم ساعدنا..

في البداية لم يرد عليهم وفجأة صرخ من داخل منزله كأن الرعد قصف في وجوههم:

-ما بكم.. دعوني وشأني.. هيا انصرفوا...

لكن الإخوة ألحوا على أبيهم كي يستمع لهم ويساعدهم أو يدلهم على مكان الحمامتين... ولتحقيق حلم صهرهم إكراماً لزوجاتهم.

نظر الأب إلى السماء والشرر يتطاير من عينيه ثم قال:

أيـــن صهركم لأعلكه بين أسناني كاللبان؟! ألا ترون أن الفاكهـــة تـــنقص غذائـــي اليوم.. هيا ارموه أمامي.. أطيعوني.. ألست أباكم..؟!

أحضـــر الأبـــناء مجموعـــة قنافيذ وقدموها لأبيهم المريض بداء الجوع المزمن فوافق على طلبهم وقال:

-العملاقان (طاموس وراموس) يسكنان قصراً على قمة الجبل الأخضر يحرسان ويخدمان فتاتين جميلتين في مقتبل العمر يعيشان معاً.. إنهما صاحبتا الحمامتين..

حينما علم الأمير من الفرسان أن قمة الجبل الأخضر تخفـــي أسرار الحمامتين سارع إلى جواده، واتجه صوب القمة حيث القصر المنيف والعملاقان المملوكان..

وصل الأمير وكم كانت البهجة تعتري ملامحه وهو يرى الحمامتين تستقبلانه قرب القصر، لم يصدق ما رأت عيناه في بداية الأمر، لكن ترحاب الفتاتين اللتين وجدهما على باب القصر ينتظرانه أكد له أنهما صاحبتا الحمامتين المهاجرتين، وعرف بعدئذ أن الحمامتين تقومان بمساعدة الأســـرى والحياري. وأنهما أوصلتا الرسائل بين أخواته والفرسان شهوراً قبل أن يتم الاتفاق على الزواج بينهما، كمـــا أخرجـــتاه مـــن عزلته وحيرته عندما أبلغته رسالة الفتاتين.

بعــد أيــام تــزوج الأمير بالفتاتين فطربت أخواته لعرسه،،، دقت الطبول وأقيمت الأفراح ورقص الفرسان رقصتهم المعهودة المتمثلة في الالتفاف حول بعضهم على شكل حلقة، يترنحون هنا وهناك يميناً ويساراً في غروب الشــمس إلي مطلع الفجر... وعاد الأمير إلى بلدته رفقة زوجتيه سالماً غانماً، مكرماً ناعماً...

***

كــان للأميــر الشاب عمٌ شديد البأس، غليظ القلب، ملكته الغيرة حينما علم بزواج ابن أخيه ورأى العروسين الــباهرتين بجمالهما، فكر بخبث وشرع في تدبير مكيدة للتخلص من ابن أخيه الأمير الشاب قصد امتلاك زوجتيه الجميلتين..

***

ذات يــوم أرسل الأمير من قبل عمه في رحلة صيد رفقة فارسين من فرسانه الغشومين بغية القضاء عليه..

رافقهما الأمير في رحلتهما وهو لا يدري ما يخفيانه فــي نفسيهما... نعم إنها المكيدة التي تنتظره فيفقد بعدها عينيه وعروسيه العزيزين...

(إن غــدر الزمن غدر الرفيق، رفيق الطريق واجب الحــذر مــنه يــا أبــنائي "تقول الجدة زينب" لا تأمنوا

لرفقاء السوء جانباً).

عطش الأمير في رحلته الصحراوية فلم يجد ماء في جرابه يطفئ به لهيب الضمأ، ولما طلب من رفيقه جرعة مــاء امتــنعا... فاشــتد العطــش به حتى أشرف على الهلاك...

وبعد الإلحاح والتهديد استجابا لطلبه بشرط غريب!! هو أن يفقأ عينيه...

غدر الفرسان بالأمير ورموا به في غياهب الصحراء بعدمــا فقأوا عينيه مقابل جرعتين من الماء... ها هو في لهيــب الشمس المحرقة كفيف البصر، يتلمس الطريق فلا يعــرف لــه دربا، ويبحث عن قطرة الماء فيسيل عرقه قطرات مما زاده عطشاً وألماً...

ســار الأمير حتى تعب فجلس تحت ظل شجرة وهو يتحســس المكــان في حالة يرثى لها، على حافة الهلاك المؤكد.

-كــان عــلى أغصـــان الشجرة صغار طائر اللقلق يرقبون هذا الإنسان مشفقين عليه، تألمت اللقالق الصغار لحالِــه، ولمــا عــاد أبوهم ودنا منهم كعادته ليأخذهم في حضنه، رفضوا الاقتراب منه قائلين:

-لا نقــترب منك حتى تساعد هذا المخلوق البائس،

انظــر إلى الأرض، تأثر اللقلق لقول صغاره فلبى طلبهم في الحين عندما قال:

-أيها الإنسان، ضع يدك يميناً تجد حجرة، حاول أن تقلبها على ظهرها.

-امتدت يد الأمير في رعشة ووهن، نزع الحجر من مكانــه، فتنزى الماء ينبوعاً صافياً، روى الأمير عطشه بعدما عبَّ الماء عباً...

كــانت فرحة الصغار بأبيهم عظيمة وهو يساعد هذا الضيف الضال ثم قالوا:

-هكــذا يا أبي كنت تحثنا على التعاون وحب الخير ومســاعدة المظلوم، وحتى تكمل عملك الصالح بمعرفتك وحنكــتك الواســعة في هذه الأمور، ساعده على استعادة بصره ألم تر عينيه؟!

فكــر اللقلق ذو الساقين الطويلتين في كيفية مساعدته عــلى استرجاع نور البصر، فأشار نحو أوراق الشجرة وهو يقول للأمير:

-انهــض وانــزع هذه الأوراق، أطحنها بأضراسك حتى تصير كالمضغة ضعها على عينيك، ستشفى.

أســدل الليل ستاره وسطعت النجوم البراقة في هذه الظــلمة الــتي خيمت على نفسية الأمير وكانت البشارة

بوجود هذا الطائر الذي كان وصغاره خير أنيس في ظلمة العـمى.. وبفضل هـذا الطائر وصغاره استعاد الأمير بصـره وعادت إليه قوته، وواصل دربه حيث لا يدري، ولم ينس أن يقول للطائر وصغاره:

-شكراً لكم أيها الأصدقاء... لن أنسى جميلكم طول حياتي.

يمشي الأمير تائهاً في الصحارى، غارقاً بأفكاره في بحـر كثـبانه الرملية وأمواجه السرابية المتلاطمة ترميه مرة، وتصفعه مرّات أخرى...

في طريقه وجد كوخاً قديماً، استأذن من خارجه طالباً الضيافة، فوجد عجوزاً رحبت به وقدمت له جفنة الطعام وقطعة لحم وجرّة حليب، بدأ يأكل ويشرب بنهم، وعندما شبع وارتوى شرع في رواية قصته...

قـالت لـه العجوز بعدما نزلت دمعتان من عينيها الغائرتين:

-لا تخـف أيها الشاب.. لي ابن فارس قد يساعدك، وهذا أوان عودته؟

رجع الفتى ابن العجوز إلى منزله فوجد الأمير، سعد بـلقياه دون أن يعـرف حكايته، وبعد حديث طويل بين الاثـنين عرف الأمير من كلام الفتى أن عمه كلف الفتى

ابـن العجوز بمقاتلة العملاقين ليتمكن (العم) من الفتاتين ويـتزوجهما بعـد أن رجعـتا إلى قصـرهما إثر غياب زوجهمـا المفاجئ، كما عرف الأمير من كلام الفتى أن عمـه هو الذي دبر له المكيدة للتخلص منه، وبعد صمت قال الأمير للفتى:

-عـندي اقتراح... هل تسمح لي بالذهاب الأسبوع المقبل لمقاتلة العملاقين عوضاً عنك؟

وافـق الفتى في الحين، وقدم لـه في اليوم الموعود ملابـس القتال.. الحصان الأدهم والنبال الحادة والسيف البتار والدرع الواقي، ثم دلّه على الطريق.....

اتجـه الأمير متنكراً بلباس الفتى إلى مكان المعركة، فوجـد عمه والناس في الانتظار، اتجه مباشرة إلى ساحة القـتال، بـدأ يهـاجم مـتحدثاً معهما حتى تعرف عليه "العملاقان". فلم يمساه بأي أذى، ثم هرعا إلى العروسين لإخبارهما....

وفي اليوم الموالي طلب الأمير من العجوز أن تملأ له قربة بالدم... فأقدمت العجوز في الحين على ذبح تيس كـبير وملأت القربة الصغيرة بدمه، فحملها الأمير على عاتقه واتجه إلى ساحة الوغى...

كـان الناس يقفون عن بعد في انتظار المعركة بين

الشاب والعملاقين طاموس وراموس.

الفتاتان ترقبان القتال التمثيلي من شرفة القصر، لا تصدقان ما ترى عيونهما.

بدأ القتال الوهمي بين الطرفين.. وفي غمرة الاشتباك أفرغ الأمير المتنكر قربة الدم على العملاقين فتلطخا بالدم، ثم سقطا على الأرض كالموتى، وكأنهما يعرفان ما يقصد الأمير بذلك الدم المسربل على جسميهما...

ظن العم وحاشيته أن "طاموس وراموس" قد هلكا، فدخلوا ساحة القصر متجهين صوب جناح الأميرتين لاختطافهما.. حينئذ قام طاموس وراموس وأحاطا بعم الأمير وحاشيته، وقبضا عليهم... في ذلك الوقت كان الأمير الشاب يحتضن دفء زوجتيه ودموع الفرح تملأ عيونهم، ثم قدم هدايا عديدة "لطاموس وراموس" وعاش الجميع في سعادة كبيرة.

وتصمت الجدة "زينب" معلنة بذلك نهاية الحكاية فيتنفس الأطفال الصعداء لنهايتها السعيدة.

■■■

لونجا

-"لونجا" الفتاة ذات الجمال الرائع الذي بلغت شهرتها الآفـــاق، لا يـــتزوجها إلاّ الشاب الذي يدافع عنها ويدفع مهرها غالياً.. وهو المخاطرة بحياته وسط الأهوال...!! كَيف بدأت قصتها؟

الزمن يمر والأجيال المتعاقبة لا تبرح تنسج بأناملها وألســـنتها صوراً شتى لحكايات نعتقد أنها منا.. قد تكون حقيقـــة أو خيـــالاً.. أو مجرد أسطورة نستلطفها فتشوقنا لمتابعة أحداثها حتى النهاية.

-كـــانت جدتـــنا "حجيلة" تحلب الماعز والنعاج في الزريـــبة بعدما أدخلها الصبية القادمون من المرعى حيث الكـــلأ واللعب والمرح، مع الغروب حينما تنزع الشمس ثيابها لتنام في حضن الجبال أو لتستحم بماء البحر وتنام بيـــن الأمـــواج، المهم أنها تغيب حتى ولو أنها لن تنام..

هكـــذا.. هـــم يمزحون.. لا يعرف من حديثهم سوى هذه الضحكات المعبرة على قوة الأمل في قلوبهم البريئة..

يجلسون حول "قصعة" الكسكس بالحليب.. يأكلون في سعادة،، يتمعنون في ملامح الجدة،، يترقبون شفتيها حين تنـــبس بكلمة...... وما تقص عليهم من قصصها الجميلة المسلية.!!. تتنهد الجدة "حجيلة" وهي تضع الملعقة، قائلة:

الحمـــد لله،، اللهم أدمها نعمة وبارك لنا كما باركت في حياة "لونجا"... ويقاطعها الأبناء وأعينهم تترجاها... لونجا... لونجا... ما قصتها؟

تنهض الجدة "حجيلة" لتتكئ إلى وسادتها ثم تعتدل في جلستها وتبدأ القصة قائلة:

"لونجـــا" اسم أسطورة الجمال الفاتن،، الفتاة السحرية القادمة من أعماق التاريخ، ذات قوام رشيق وهامة تغطيها خصـــلات شعرها الذهبي المسترسل على ظهرها،، كانت حـــلم الشـــباب،، كـــل واحد يريد الوصول إلى رضاها ليـــتزوجها ويفوز بجمالها الباهر الذي شغل بال الجميع،، لكـــن مزارها بعيد ودون ذلك أهوال ولا يغامر بنفسه إلاّ الشـــجاع، الـــذي لا يبالي بالموت من أجل العيش اللذيذ والحياة السعيدة.

***

فــي قــلعة عظيمــة تضاهي السماء،، يعيش الملك وزوجته وابنهما الوحيد "الأمير زهّار" الذي عرفته البلدة بمــروءته وشهامته وطيبة قلبه وشجاعته الفائقة وبجوار قصــر المــلك يسكن شقيقه "شقران" الذي أضنته الحياة بأوجاعها وآلامها،، وعسرت عليه الليالي بمحنها،، نظراً لأطماعه الكثيرة وحسده الكبير.

فــي إحــدى الليالي جلس شقيق الملك يفكر في حاله وفي ثروة أخيه الملك العجوز الذي تمتلئ خزائنه بالأموال الطائــلة التي جعلت سبب عشيته مترفة بالبذخ والملذات فســكن قلــبه الحقــد والضغينة وفكر في حيلة ينتقم بها لحالــه.. فخطرت بباله فكرة للاستيلاء على ثروة أخيه، قال في نفسه:

-ينــبغي القضــاء عــلى ابن أخي الملك،، لأصبح الوريــث الوحيد للمُلك. وما هي إلاّ لحظات حتى أسرع الخــطى نحو العجوز الداهية يستشيرها في طريقة تدبير المصيدة للإيقاع بالأمير الشاب "زهار" والتخلص منه إلى الأبد....

جلس الاثنان،، يتبادلان الحديث في همس، يتناجيان فــي خبث ومكر،، كان بلحيته السوداء وبرنوسه الأصفر وعمامــته الملــتوية كــنوم الــثعابين ومن عينه تتطاير شــرارات النار الموقودة في قلبه يشبه العجوز الشمطاء

ذات النابين البشعين وهي تعصب رأسها المملوء بالدهاء والحيل التي تفوق حيل الشياطين.. كانت عيناها المرعبتان تحيط بهما تجاعيد المكر، والوشم الأخضر يملأ وجهها الشاحب،، وفي ذراعيها أساوير الفضة المنقوشة وفي حجرها كيس النقود، تتلمسه بأناملها ثم تتحدث خفية مع غرابها الأسود القابع على كتفها أو تنظر إلى الجانب الآخر نحو القط الأسود بنظراته الماكرة ثم ترسل تساؤلات لهذا الشيء الذي يلمع بين يديها والقط يشجعها...... .

اتفق الاثنان على الأمر شريطة أن يكمل لها المبلغ المتبقي حينما تقضي على الأمير "زهار".......

في اليوم الموالي راحت العجوز إلى الغابة حيث البئر العميقة لتملأ جرتها وتستطلع أخبار الأمير "زهار"،، تتفحص أعماله ومواعيده وأوقات خروجه،، وبينما هي في البئر إذ يقف الأمير بشعره الأسود المتدلي وبرنوسه الجميل وصداريته المطرزة بالذهب الخالص يتوسط خصره حزام مزركش علق به سيف ينام في غمده وهو على جواده الأدهم،، يدنو الأمير "زهار" من الحوض، بعدما ابتسم في وجه الماكرة حيّاها، قائلاً لها:

-طيبت، هلاّ فسحت جانباً من المكان حتى يشرب الحصان...

نظرت إليه "الماكرة" وهي مقطبة الحاجبين،، وقالت ساخرة،، مستهزئة:

-آه، أحسبت أنك بشجاعتك وشهامتك التي رفعتك بين الأهالي وجمالك الذي تترنح به هنا وهناك على هذا الجواد المسكين،، تفعل ما تشاء؟ من تكون أمام "لونجا" الفاتنة؟

تعجب الأمير الشاب"زهار" مستغرباً أمرها وعاد من حيث أتى حائراً،، مشغول البال،، شارد التفكير يسأل ولا يجد جواباً لسؤاله، حيرته تزداد من يوم لآخر...

لم يطق صبراً فأرسل حراسه لإحضار الداهية وما هي إلا ساعات حتى كانت العجوز أمامه،، روت له حكاية "لونجا" ابنة العملاق المتوحش التي تعيش في غياهب الدنيا بأقصى المعمورة حيث لا أحد يمكنه أن يصل إليها، حتى يرى سحرها وروعتها لأنها تقيم وسط متاهات الموت والهلاك....

***

امتطى الأمير الوسيم عربة يجرّها حصانان،، تاركا البلدة متوجهاً إلى الناحية التي أشارت لها العجوز حيث توجد "لونجا" ابنة العملاق المتوحش التي ملكته دون أن يراها، والأذن تعشق قبل العين أحياناً..!!

كانت لـــه شمس تضيء دربه المحفوف بالمخاطر، صـــورتها لم تفارق مخيلته طيلة سفره،، وجهها الجميل تـــتغمده الغيـــوم السوداء لكن حسنها يومض كالبرق من خـــلال الســـحب، خصـــلات شعرها المتطاير تلف سماء فكـــره.. نعم لقد كان طيفها رفيق سبيله طول المدة التي كـــان يقضـــيها بحثاً عن المكان المسمى غياهب الدنيا... قصد بيت أحد الشيوخ الحكماء وقص عليه حكايته رغبة في المساعدة بالرأي.

رحب به الشيخ واستضافه إذ قدّم له الطعام والحليب فـــي بيته المتواضع المزين بالأواني المزخرفة التي تبدي مهـــارة اليـــد هوبة في الإتقان والإبداع،،، الشيخ الوقور بلحيـــته البيضـــاء المتدلية... تجاعيد الزمن وخبايا الأيام عـــلى جبينه مرسومة، تذكره بتعاسة الماضي وسوداويته المضنية،، إنه شيخ يعرف أسرار الحياة، كثير التجارب، راجـــح العقل، جامع الأخبار لذلك يسمى الشيخ المدبّر،،، قال للأمير في شفقة وحنو:

-أدرك أيهـــا الأميـــر قصـــتك واعرف أن طريقك صـــعب، لأجل الوصول إلى الحسناء الموت يواجهك كل لحظة،، فكم من فارس مات قبلك في طريق غياهب الدنيا ولم يصل إلى "لونجا" ويا ليتك تنسى هذه الفتاة وتعود إلى أبيك تساعده في أمور السلطة، وقف الأمير "زهار" قائلاً:

-لا يهمني شيء ما دمت بعيداً عن "لونجا" لابد أن أصل مهما كان الثمن...

قال له الشيخ:

-إذاً عليك بتنفيذ التوجيهات التي قدمتها لك واحذر الصخرة العجيبة وستصل إلى "لونجا" بإذن الله...

***

اختار الأمير جواده الأدهم رفيقاً له وسار في طريقه أياماً وليالي، قطع خلالها المسافات الطويلة ورأى الأهوال المرعبة، واجهها بشاعة،، وشاهد الصخرة العجيبة التي تفتح وتغلق بسرعة غريبة، وفي الفضاء ترقص الوطاويط رقصة الموت وتوطوط منذرة الأمير بخطورة الأمر،، لكن الأمير "زهار" كان شجاعاً وذكياً واستطاع أن ينفذ من الثغرة بخفة وينجو من فم الصخرة كالبرق ودخل بأعجوبة خارقة....

وصل الأمير إلى قلعة ذات شكل عجيب مريب، كأنها رؤوس أسُود وأنياب وحُوش من العهد القديم، تقشعر لها الأبدان وتفزع لمنظرها النفوس.... وجد أمامه كلبة ضخمة هجمت نحوه فرمى لها قطعة لحم ثم لاعبها بمرونة وليونة حتى هدأ من روعها فسكنت حركتها،، ثم بدأ الأمير يصيح منادياً الحسناء:

لونجا أيتها الحسناء، هيا اخرجي،، لقد جئتك فارساً،، أبحـــث عـــن حقيقة الأسطورة التي سكنت قلبي فتحديت لأجلها الخطوب....

تظهــر الحســناء من الأعالي كالشمس الساطعة في ظلمة الليل،، قائلة في دلال:

-من أنت أيها الغريب،، وكيف دخلت إلى هنا،، (ثم أردفــت ناصـــحة): -أخفــض صوتك،، اصمت حتى لا يسمعك الآخرون.

يرد عليها متحدياً:

-لن أخشى أحداً لأجلك، جئت راغباً في الزواج بك ... أنا الشاب "زهار" من جزائر الأحلام... وهذا قلبي في كفي أهديه لك عربوناً...

ســـعدت "لونجا" بقوله ورمت بضفائرها إلى الأرض ليستعين بها عند الصعود.

-انبهر الأمير أمام طول شعرها الذي زادها سحراً، مسك به وصعد إلى غرفتها..

-عاد العملاق المتوحش والد "لونجا" تحسس المكان وأدرك أن أحــداً دخــل المنزل، اضطربت "لونجا" كثيراً لكنها وجدت مخرجاً لورطتها وقالت لأبيها:

-إن عابــر ســـبيل جائعاً، اقترب من الصخرة طالباً

القوت كي لا يموت بالطوى، فقدمت له الخبز واللبن،، ثم انصــــرف لحالـــه، اطمـــأن العملاق المتوحش لقول ابنته وراح ينام في سبات عميق، لكنه من حين لآخر كان يفتح إحدى عينيه وهو ينقلب على أحد جانبيه...

***

في الصباح الباكر،، هربت "لونجا" مع الأمير "زهار" عـــلى صهوة الجواد الذي جاء به الأمير وأثناء خروجهم مـــن المـــنفذ تفطنت كلبة العملاق المتوحش الحميمة عند سماعها صهيل الحصان وأدركت أن "لونجا" غير موجودة بـــل رأتها تهرب مع الشاب، فأيقظت العملاق الذي فتش عـــن ابنته،، ناداها،، ولا مجيب،، نظر من النافذة فرآها مع شاب يمتطيان الجواد....

هـــرع نحوهـــم راكضاً والغضب يملأ أحشاءه وهو يُزمجـــر بأنيابه الموحشة وبأظافره الشرسة،، لقد اسودت الدنيا أمام عينيه،، ها هو يبحث عن الطريق عن المخرج الضـــيق،، كأنـــه غـــريب عن المكان،، حاول الخروج فأطبقت عليه الصخرة لسمنته وخشونة جسمه واضطرابه الشـــديد،،، صـــرخ صـــرخة مدوية ضجت لها الأسماع وردّدت صـــداها القمم والأوهاد،، التفت الهاربان خلفهما مندهشين فإذا بهما يشاهدان العملاق المتوحش يلفظ أنفاسه في منظر بشع ومريع، والصخرة منكبة عليه،، فعادا نحوه

حائرين،، كان يخاطبهما بوصايا ثلاث، بمعاناة كبيرة من شدة الموت البطيء الذي يفتك به:

أوصيك "بلونجا" خيراً أيها الشاب الغريب قد تصادفك في طريقكما ثلاثة أشياء فاحذرا الاقتراب منها أولاها:

-رجلان يتنازعان، وثانيها محفظة مملوءة بالذهب، وثالثها نسران يقتتلان أمام النهر،، لا تباليا بأي منهما وإلاّ هلكتما... (وبعد إتمام وصيته سقط جثة هامدة...)

-أدمعت عينا "لونجا" الجميلتان حرقة على وفاة أبيها لكـــن الأميـــر الحليم هدأ من روعها وحملها على جواده ثانيـــة، فاحتضنته من الخلف وأطلق العنان لجواده يطوي المسافات طياً فيثير النقع خلفه كالزوبعة الترابية..

***

في طريقهما الغابي على سفح الجبل وجدا كيساً من الذهـــب فتعففا عن حمله ثم شاهدا رجلين يقتتلان،، تذكر الأميـــر وصـــية "العملاق المتوحش" لكن بذرة الخير في نفسه جعلته لم يُطق صبرا،، فقفز بجواده نحوهما وأصلح بينهما ووزع كيس الذهب بينهما بالتساوي والتراضي، ثم واصل سيره وهو في طريقه رفقة الحسناء "لونجا" إلى أن شـــاهدا نســـرين يقتـــتلان،، نسر ضخم يفتك بنسر دونه حجمـــا، تحركت في جوانح الأمير المروءة وروح الإقدام

ضد الظلم،، فتدخل بينهما يريد إنقاذ النسر المهيض الجناح،، لكن النسر الكبير انتهز الفرصة واختطف بمخالبه الأمير من ظهره وحلق به في الأجواء العالية تاركاً وراءه "لونجا" وجواده،، ومع الهلع تذكر الأمير وصية "العملاق المتوحش" لكن سحر السماء ومناظر الأرض البديعة أنسته حاله....

"لونجا" الفتاة اليتيمة،، الوحيدة بعد غياب فارس أحلامها تبكي ألماً من لوعة فراق أبيها العملاق وشريك حياتها الأمير "زهار"، تقول نائحة:

-واحسرتاه..

تناديه.. لكن لا جدوى من صراخها ونحيبها وحزنها...

ركبت حصان الأمير لا تدري لها اتجاهاً.. لكن الحصان كان بغريزته يسير نحو قصر الملك،، ها هي مكسورة الخاطر،، لا رفيق سوى هذا الجواد الأدهم، وطيف الأمير يرافقها الدرب. بعد أيام وليال من السير وحيدة ها هي تقترب من القصر الفاخر،، متخفية في ثياب رثة،، حين دخلته طلبت من الحراس مساعدتها على البقاء والعمل كخادمة لدى الملكة....

كان لها ما أرادت،، وهي بذلك تريد قضاء حياتها

قرب والدي "زهار" الأمير، أغلى شيء لديها في الوجود، لكـــنها وجـــدت أبويه حزينين لغيابه، فتضاعفت تعاستها، وصار ذلك القصر يسمى: قصر الأحزان.....

كـــل يوم تجلس "لونجا" بجانب النافذة مهزوزة النفس تتـــتابها رعشات الوحدة القاسية،، تتذكر حبيبها الفارس.. تتساءل:

-تـــرى إلى أين طار به النسر؟ وهل مازال حياً أم وافته المنية واختطفته هي الأخرى مني؟

يداعـــب الجـــدة "حجيلة" النعاس فتمسح بيديها أجفان عينيها الغائرتين ولما رأت الكرى يداعب أهداب الأطفال قالت:

-هيّـــا للـــنوم يـــا أبـــنائي وغداً نكمل حكاية-لونجا الحســـناء- يجلس الصبية متربعين بعد تمددهم، ويقولون بصوت واحد:

-أرجوك يا جدتنا العزيزة أكمليها لنا الليلة، لا تنامي حتى تقصيها علينا كاملة.

لـــبّت الجدة طلب أحفادها وواصلت سرد هذه القصة الشيقة التي شدّت سمع الأطفال لها،،، قالت الجدة:

عـــندما كـــانت "لونجا" عند النافذة حائرة متسائلة في نفســـها... أســـئلة لم تعرف لها جواباً،، لمحت على حين

غــرة نسراً يجوب في الفناء فلوحت بيدها، محاولة إيقافه لكــنه غاب عن الأنظار،، وبعد برهة من الزمن عاد إلى سماء القصر –إنه النسر المحقور– الذي تعارك مع النسر الضــخم– يحــلّق أمامها في حركات تعبيرية كأنه يريد تبليغها رسالة....

قفزت "لونجا" وهي تلوح بيدها يميناً ويساراً، والنسر يواصل حركاته بجناحيه الطويلتين،، خرجت "لونجا" من القصر وتبعت النسر في اتجاهه، متخذة إياه دليلاً. قطعت أراضي البساتين والحقول ثم السهول وبلاد القفار، وعلى رأس هضــبة نــزال النســر وأخذ ينظر صوب شجرة عظيمة،،، توقفت "لونجا" والعرق يتصبب من جبينها،، لقد أنهكهــا التعب لكن الأمل في لقاء فارسها المفقود أعطاها قوة إضافية تحملت بطاقتها المصاعب.

اقــتربت من الشجرة الكبيرة... فسمعت أنيناً خافتاً،، خفــق لـــــه قلبها،،، إنه الأمير "زهار" ها هو ينادي،،،، أســرعت نحــو الشجرة،، لكن النسر العملاق كان أسرع مــنها،، حيــث حمل الأمير وحلّق في السماء،، فصارت الفــتاة الحزينة تلوح بيدها مرة أخرى، صارخة في وجه الدنيــا،، سمعها الأمير فحاول أن يجيبها بأنفاس متقطعة، وقد أنهكه التعب:

–عليك بذبح خروف سمين وتركه عند النهر، عندما

يـــراه النســـر سيأكله فيشبع ويقع طريح الأرض حيث لا يقوى على الطيران،،، وقتها عليك بضربة بعصا غليظة على رأسه فأنجو من قبضته..

-قـــامت "لونجـــا" بتنفيذ وصية الأمير المأسور عند النسر الخاطف، فتحقق ما قاله، وأنقذته "لونجا" من قبضة الطائر الجارح، ولكن المسكين مرض مرضاً شديداً أقعده طريح الأرض... لأنه لم يستطع السير على قدميه للعودة إلى القصـــر وسهرت "لونجا" بجانبه طوال مرضه تخفف حـــرارة جســمه وتناجيه باسم الشوق وما جرى لها في غيابه... صار "زهار" طريح الفراش الذي صنعته له من أوراق الشـــجر وحـــزم الحشيش كانت تداعبه بأناملها،، تخفــف عنه الآلام،، ينظر إليها مرات ومرات،، نظراته تكـلمها تخاطـــبها بلغة العيون تستقبلها "لونجا" يتحسسها بأنامله،، يسعد بوجودها، رغم كل شيء هي بجانبه...

***

مرت الأيام فبدا الأمير "زهار" شاحب الطلعة،، يمتثل للشـــفاء،، وكان علاجه الوحيد امتصاص رحيق الأشجار وحب الزيتون الممزوج بنظرات الحب والحنان من فتاته "لونجا"...

كـــان المـــلك وزوجته يعيشان في كآبة قاتلة وحزن عميـــق لفـــراق ابنهما الأمير الذي انقطعت كل أخباره،،

حــتى أخــذ الحزن موضعه في قلبيهما،، وصار القصر كــالكهف المهجور، لقد غابت عنه الضحكات والسهرات الليــلية والجلســات الممــتعة حول الموائد المليئة بأشهى المأكولات,... وأهله في أثواب من أفخر الملابس يرفلون ويتبادلون البسمات والطرائف....

عــادت الحســناء ومعها الأمير الشاب "زهار" الذي دخل المدينة في ثوب متنكر حتى لا يعرفه أحد وفي اليوم الموالــي لعودتهما، طلبت الخادمة الحسناء "لونجا" مقابلة المــلك وهي في أثوابها الرثة،، الممزقة،، فلم يسمح لها الحــرس بمقابلــته وهي على هذا الحال، فأحدثت صوتاً مستجدياً وصل مسمع الملك، فأستفسر عن الخبر، قال له حاجــبه الحقيقة،، فأذن لها، دخلت عليه بهندامها الممزق، تعجــب المــلك لحالهــا ولكن جمالها الفاتن أنساه نظرته المستصغرة لها، سألها:

-ما وراءك أيتها الخادمة؟

-مــولاي مــنذ أن وطئت قدماي هذا القصر لم أر البســمة على شفاهكم أو السرور على ملامح وجوهكم،، نفوســكم جائــرة،، صــامتة،، نظــراتكم بائسة،، جامدة كــالجدران تنتظر بشرى سعيدة،،، استغرب الملك قولها لكــن لم يقاطع كلامها... استطردت "لونجا" في قولها... اسمح لي بالخروج وسأعود إليك في الحين،، سأرفع بعد

قليل ستار الحزن عن القصر وأمسح الدموع من نوافذه،،،

-أومأ برأسه موافقاً على طلبها........؟

-خـــرجت "لونجـــا الخادمة" أمام الباب وطلبت من الضـــيف الدخـــول إلى الملك وزوجته الحزينين،، كانت أصـــابع يديهمـــا متشابكة وهما يدخلان،، فاحتار الحرس منبهرين...

المـــلك وزوجته تغمرهما الفرحة للقاء ابنهما الغريب الحـــبيب، الـــذي طـــالت غيبته أمامهم، حتى يئسوا من عودتـــه،، وفـــي غمرة فرحتهم الكبرى انصرفت "لونجا الخادمة" إلى خارج مجلس الملك...

غيّـــرت ملابســـها الـــرثة بأخرى جديدة ثم سرحت شعرها الذهبي،، فتحولت "لونجا" بسحرها وفتنتها صاحبة الجمـــال الأســـطوري إلى ما كانت عليه روعة وبهاء... والفرحة تملأ قلوب العائلة يطلب الأمير "زهار" من الملك قائلاً:

-أبـــتاه اليوم وبمناسبة رجوعي تتوالى المفاجآت... هـــل يطيـــب لكم استقبالها؟ يسعدني أن أقدم لك عروسي المخـــتارة،، التي غبت لأجلها،، وها أنا بينكم اليوم، فما تقولـــون؟ نـــادى الأمير "لونجا" فدخلت عليهم في الحين انبهر الملك وزوجته لجمالها الساحر ومحياها المشرق....

وبعــد التشــاور وافقــا على زواجها من ابنهما وأقيمت الأفــراح فــي البلدة احتفاءً بزواج الأمير وسعد الأهالي بعودتــه بعد إقدامه على مواجهة الأهوال وتحديه الشجاع لــلمهالك،، وبــاءت الخطــة الجهنمية للعجوز "الماكرة" المدبــرة لــلمكيدة مــع شقيق الملك شقران بالفشل وكان جــزاؤهما خيبة الأمل التي قتلتهما حسرة وندماً على ما فعلا...

عاش القصر الأفراح والليالي الملاح محتضناً "الأمير ولونجا" في سعادة وهناء.

وتمت الحكاية فتتثاءب الجدة "حجيلة" وترمي برأسها عــلى الوســادة البنية المرقومة بالغزل الأبيض والأسود ويداهــا المتشققتان شاهدتان على نشاطها المهني.... ثم تقول:

-هكــذا يــا أبــنائي تنــتهي حكاية "لونجا الحسناء" بانتصــار الحــب على البغض، والخير على الشر،، كان بعــض الأطفال قد استسلموا للنعاس فناموا قبل أن تنهي جدتهــم القصــة، وكان من بين المستيقظين الطفل الذكي "رؤوف" نظــر صــوب الجــدة "حجيلة" قائلاً في جرأة عجيبة:

-هــل صــحيح يا جدتي في الدنيا أغوال موجودة؟ احــتارت الجدة لهذا السؤال المفاجئ وبعد تفكير قصير،،

قررت الجدة اطلاع الصغار على الحقيقة فأجابت قائلة:

-الحقيقــة يــا أطفال.. الغول اسم لحيوان وهمي لا وجـود لـــه على وجه الأرض، ونحن الكبار نخيف به الأطفــال الصــغار كــي يهدأوا، فنتجنب بذلك صراخهم وطلــباتهم المــتكررة،، فتناول رؤوف كراسه القاموسي وقلمه وكتب: الخير يتفوق على الشر ثم أضاف: الغول: حيوان وهمي لا وجود له.

■■■

الفهرس

■■■

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

بقرة اليتامى وقصص أخرى: حكايات جزائرية شعبية
من التراث الشعبي/ اعداد عائشة بنت
المعمورة ، رابح خدوسي- دمشق:
اتحاد الكتاب العرب، 2001 - 88 ص؛
20سم.

1- 813.01 م ع م ب
2- العنوان
3- بنت المعمورة
4- خدوسي

ع- 2001/7/1187
مكتبة الأسد



هذا الكتاب

حكايات من التراث الشعبي تتضمن حقائق وأساطير من الأدب الشفوي للمجتمع الجزائري هي ملامح ترددها الأيام جيلاً بعد جيل في مختلف المواسم والمناسبات.

أعــاد صياغتها الكاتبان الجزائريان رابح خدوسي. وقدمها في طبق لغوي جميل للصغار والكبار...

0328250

ثمن النسخة ١٢٥ ل.س في القطر

مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق